30 سلسلة الدروس الثقافية

حُسْنُ المَآب

(قبساتٌ من دعاء التوبة)









حُسنُ المآب

جمعيّة المعارف الإسلاميّة الثقافيّة

بيروت . لبنان . المعمورة . الشارع العام

هاتف: ٠١/٤٧١٠٧٠

ص.ب. ٥٣/٢٤ . ٢٥/٣٢٧



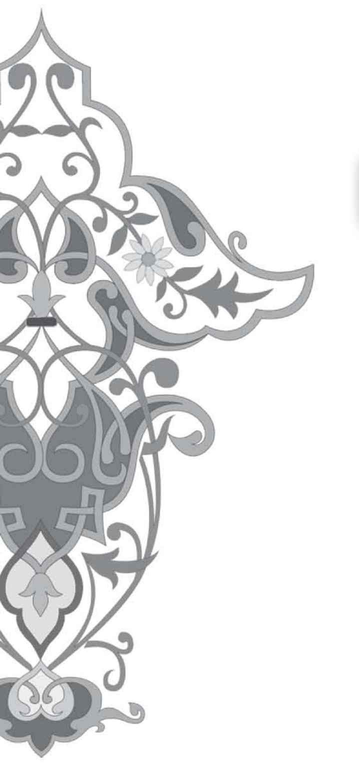
الإعداد والإخراج الالكتروني
www.almaaref.org

الكتاب: حُسنُ المآب

تأليف: مركز نون للتأليف والترجمة

نشر: جمعيّة المعارف الإسلاميّة الثقافيّة

الطبعة الأولى أيلول 2010 م - 1431 هـ



حُسنُ المآب



مركز نون للتّأليف والترجمة
الإعداد والإخراج الالكتروني
www.almaaref.org


بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمة

الحمد للّه ربّ العالمين والصلاة والسلام على أشرف الخلق وسيّد الرّسل، الّذي بعثه اللّه تعالى رحمة للعالمين، سيّدنا أبي القاسم محمّد بن عبد اللّه، وعلى آله الأطهار البررة ﴿الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآب﴾[(١)].

إنّ دعاء التوبة من الأدعية القيّمة الّتي رويت عن إمامنا زين العابدين عليه السلام في صحيفته السجاديَّة، وقد تضمّن أعلى ما يمكن تصوّره من معاني الرجوع إلى اللّه سبحانه وتعالى بعد البعد عنه.

ونحن إذ نقف أمام هذه المضامين العالية بالشرح والبحث عمّا وراء هذه الكلمات النورانيّة، نسأل اللّه العفوّ أن يجعلنا من التائبين المنيبين ويرزقنا الزلفى لديه وحُسنُ المآب، وآخر دعوانا أنِ الحمد للّه ربّ العالمين.

مركز نون للتأليف والترجمة

---

(١) سورة الرعد، الآية:٢٩.

1 أهمّيّة التوبة

من دعاء الإمام زين العابدين عليه السلام في ذكر التوبة:

اللَّهُمَّ يَا مَنْ لا يَصِفُهُ نَعْتُ الْوَاصِفِينَ، وَيَا مَنْ لَا يُجَاوِزُهُ رَجَاءُ الرَّاجِينَ، وَيَا مَنْ لَا يَضِيعُ لَدَيْهِ أَجْرُ الْمُحْسِنِينَ.

تمهيد:

عندمـا يجلس الكاتب أمـام الحاسـوب، ويبدأ بطباعـة ما يجول فـي خاطره على صفحات حاسوبه، ويتعثّر فكره في أيّة فكرة، فإنّه مباشرة ينتقل إلى خيار التراجع عمّا كتب، ليقوم بتصحيح الفكرة، أو تصحيح الجملة الّتي كتبها بشكل خاطئ.

وعندما يشـتر ي الواحد منّا حاجة من حاجاته، ويرجع بها إلى بيته مسـروراً ليجد أنّــه قـد أخطأ في خياره إذا بان عيبها، فإنّه مباشـرة يعود إلى الكفالة ليسـتعملها في التراجع عن الشراء.

وحين يتقدّم الجيش في المعركة إلى أرض تصل إليه فيها نار الأعداء ولا يجد مفرّاً ولا ملاذاً للاحتماء منها، فإنّه سرعان ما يتراجع إلى الوراء حفاظاً على قوّته، ولإعادة الهجوم بشكل أفضل.

وكذا الإنسـان في كلّ مواقف حياته، كحين يتفوّه بكلمة تسـيء لصديق، فإنّه يسارع للتراجع عنها ومحاولاً توضيح موقفه، وقد يعتذر عمّا صدر منه.

وكثيـر من هذه الأمثلة تمرّ في حياة الإنسـان. ولو تأمّلنا بشـكل دقيق في تفاصـيل حياتنا فإنّنا نجد أنّنا دائماً ما نحتاج لخيار التراجع هذا.

وفي علاقتنا مع الله تعالى، لا بدّ لنا من هذا الخيار أيضاً. فلماذا نحتاج لذلك؟

الحاجة للتوبة

دعانا القرآن الكريم إلى التوبة، واستعمل في الدعاء إليها كلمات ملؤها الرحمة، مع علمنا جميعا بأنّ الله تعالى غنيّ عن عذابنا، وغنيّ أيضـاً عن عبادتنا، لنتأمّل في قوله تعالى: ﴿**قُـلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِـمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ**

جَمِيعًــا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * وَأَنِيبُــوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ (١).

هنا دعوة بلســان الرحمــة، فقول الله تعالى: «**يا عبادي**» دائماً ما يُشــعر بالرحمة، كقوله تعالى: ﴿**وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ**﴾(٢).

وقوله تعالى: ﴿**قُل لِّعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُواْ يُقِيمُواْ الصَّلاَةَ**﴾ (٣).

وقوله تعالى: ﴿**نَبِّىءْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ**﴾ (٤).

وهذا خطاب يســتعلمه الله تعالى لخطاب المؤمنين، ويُشــعرَ المســتمع له بالرحمة، فلماذا يدعونا الله تعالى بهذا الخطاب؟

إنّ دعوة الله تعالى لنا للتوبة والإنابة لأجل أمور:

١ – أنّه رحيم بنا، ومن صفات الرحيم أن يقبل عذر المعتذر ويقيل عثرة المستقيل، وهــذا معنى قوله تعالى: ﴿**إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ**﴾ (٥).

٢ – أنّ التوبة هي بوّابة الأمل للمؤمن المتعثّر، ولولاها لهيمن القنوط على كلّ البشر، لأنّ كلّ البشــر خطّاؤون إلّا من عصــم الله، وقد نهــى الله تعالى عن القنوط من رحمتــه. يقول عزّ مــن قائل: ﴿**قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَــى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ**﴾ (٦).

وفي الرواية أنّ الإمام أبا عبد الله الصــادق عليه السلام استقبل القبلة قبل التكبير وقال: «**اللّهمّ لا تؤيسني من روحك ولا تقنطني من رحمتك ولا تؤمنّي مكرك فإنّه لا يأمن**

---

(١) سورة الزمر:الآية ٥٣، ٥٤.

(٢) سورة البقرة: الآية ١٨٦.

(٣) سورة إبراهيم: الآية ٣١.

(٤) سورة الحجر: الآية ٤٩.

(٥) سورة المؤمنون: الآية ١٠٩.

(٦) سورة الزمر:الآية ٥٣.

مكر الله إلّا القوم الخاسرون» قلت (أي الراوي): «جعلت فداك ما سمعت بهذا من أحد قبلـك»، فقال عليه السلام: **«إنّ من أكبـر الكبائر عند الله اليأس مـن روح الله والقنوط من رحمة الله والأمن من مكر الله»** [1].

وفي رواية أخرى عن إمامنا الرضـا عليّ بن موسـى عليه السلام قال: «سمعت أبا الحسن موسـى بن جعفر عليهما السلام يقـول: دخل عمرو بن عبيد البصـريّ على أبي عبد الله عليه السلام فلمّا سلّم وجلس عنده تلا هذه الآية قول الله عزّ وجلّ: **﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ﴾** [2] ثمّ أمسـك فقال له أبو عبد الله عليه السلام: ما أسـكتك؟ قال: أحبّ أن أعرف الكبائر من كتاب الله عـزّ وجلّ، فقال: نعم يا عمرو أكبر الكبائر الشـرك بـالله، يقول الله عزّ وجلّ: **﴿إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ عَلَيهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾** [3]، وبعده اليأس مـن روح الله، لأنّ الله عـزّ وجلّ يقول: **﴿وَلاَ تَيْأَسُواْ مِن رَّوْحِ اللهِ إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾** [4]...» [5].

فـلا بـدّ إذاً من بوّابة يتخلّص بها الإنسـان من عذاب الضـمير الّذي يحلّ به حينما يرتكب الذنب، وإلّا فإنّه سيقضـي عمره ملازماً للشعور بالألم والذنب، وهذا ما سيكون معرقلاً له في الحياة، فضلاً عن الخسران اللاحق في الآخرة، إذ لا مفرّ من الحساب، ولكن مع وجود التوبة يقطع الطريق أمام اليأس وينفتح به باب الإنابة، وفتح الصفحات البيضاء الجديدة.

دعاء التوبة للإمام السجّاد عليه السلام

بعد أن عرفنا مكان التوبة وحاجة الإنسان لها، نقول إنّ للتوبة في كلمات أهل البيت عليهم السلام إرثاً كبيراً، فقد تركوا لنا الكثير من الأدعية الّتي نستدرّ بها عطف الله

---

(١) الكليني، الكافي، دار الكتب الإسلاميّة، طهران، الطبعة الخامسة، ج ٢ ص ٥٤٥.

(٢) سورة النجم: الآية ٣٢.

(٣) سورة المائدة: الآية ٧٢.

(٤) سورة يوسف: الآية ٨٧.

(٥) الشيخ الصدوق، عيون أخبار الرضا عليه السلام، ج ٢ ص ٢٥٧.

ورحمته، ونخاطب بها ربّ العزّة بما يليق بالعبيد في خطاب سيّدهم ومالك أمرهم، ومن أجمل هذه الأدعية وأغزرها ما جاء في الصحيفة السجّادية لإمامنا السجّاد زين العابدين عليه السلام.

فدعاؤه عليه السلام في طلب التوبة قد حوى فنّ الاستغفار والتضرّع إلى الله تعالى، وفيه من غزارة المضامين العالية ما يجعلنا نقف أمامه طويلاً في محاولة لسبر أغواره وفهم الحالة الّتي يريد منّا الإمام عليه السلام أن نكون عليها في حالة التوبة.

تمجيد الله تعالى

ابتدأ الإمام عليه السلام الدعاء بتمجيد الله تعالى. وهذا من أهمّ آداب الدعاء. فقد حثّت الروايات الكثيرة على أهمّية البدء بالتمجيد والثناء قبل ذكر الحاجة. فقد قال أبو عبد الله عليه السلام لأبي بصير: «**إن خفت أمراً يكون أو حاجة تريدها فابدأ بالله ومجّده واثنِ عليه كما هو أهله وصلِّ على النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم**»[1].

فلهذا بدأ الإمام عليه السلام دعاءه بقوله: «**اللَّهُمَّ يَا مَنْ لا يَصِفُهُ نَعْتُ الْوَاصِفِينَ**» أي يا من لا يصف حقيقة ذاته وجميل صفاته أكثر الناس قدرة على الوصف، «وإنّما لا يصفه سبحانه نعت الواصفين لأنّ الإحاطة بمعرفة كنه صفاته سبحانه وتعالى غير مقدورة لغيره عزّ وجلّ»[2]

وهذا تمجيد له سبحانه وتعالى، ثمّ قال عليه السلام: «**وَيَا مَنْ لاَ يُجَاوِزُهُ رَجَاءُ الرَّاجِينَ**»، والرجاء الأمل، «المعنى: أنّه غايةُ كلِّ رجاء، لا مرجوَّ فوقه فيتعدّى إليه رجاءُ الراجين، بخلافِ مَن سواه من المرجوّين، إذ لا مرجوَّ سواه إلّا وفوقه مرجوٌّ يتجاوز إليه الرجاء، حتّى ينتهي إليه سبحانه فيقف عنده إذ لا غايةَ وراءه»[3].

ثمّ قال عليه السلام: «**وَيَا مَنْ لاَ يَضِيعُ لَدَيْهِ أَجْرُ الْمُحْسِنِينَ**»، «وإنّما لا يضيع لديه سبحانه

(١) الكليني، الكافي، دار الكتب الإسلاميّة، طهران، الطبعة الخامسة، ج ٢ ص ٤٨٣.

(٢) المدني الشيرازي، السيد عليّ خان، رياض السالكين في شرح صحيفة سيد الساجدين عليه السلام، ج ٤ ص ٣٨٧.

(٣) م.ن.

أجر المحسنين، لأنَّ إضاعة الأجر إنما يكون للعجز أو للجهل أو للبخل، وكلّ ذلك ممتنع في صـفته تعالى، وفيه تلميح إلى قوله تعالى ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾[١]»[٢].

ثـمّ قال عليه السلام: «وَيَا مَنْ هُـوَ مُنْتَهَى خَـوْفِ الْعَابِدِيْنَ»، فالعابـدون الحقيقيّون لا يخشـون أحـداً كما يخشـون الله تعالـى، وما يبدر منهم فـي الدنيا كخـوف إنّما هو الحذر والاحتراز، ولا يصـل لمقام الخوف الّذي يكـون بين العبد والله تعالى، كقوله تعالى في وصـف نبيّه موسـى عليه السلام: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِيـنَ﴾[٣][٤].

ثمّ قال عليه السلام: «وَيَا مَنْ هُوَ غَايَةُ خَشْيَةِ الْمُتَّقِينَ»، والفرق بين الخوف والخشية أنّ الخوف هو توقّع حصـول المكروه، والخشـية: خوف يشوبه تعظيم المخشيّ مع المعرفة به، ولذلك قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاء﴾[٥].

(١) سورة التوبة: الآية ١٢٠.

(٢) المدني الشيرازي، السيد عليّ خان، رياض السالكين في شرح صحيفة سيد الساجدين عليه السلام، ج ٤ ص ٣٨٧.

(٣) سورة القصص: الآية ٢١.

(٤) يراجع الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، الشيخ ناصر مكارم الشيرازي، ج ١٢ ص ٢٠٤.

(٥) المدني الشيرازي، السيد عليّ خان، رياض السالكين في شرح صحيفة سيد الساجدين عليه السلام، ج ٤ ص ٣٨٧.



المفاهيم الأساس:

١. التوبة حاجة للإنسان لكي لا يصل لمرحلة القنوط من الرحمة.

٢. التوبة رحمة من الله تعالى ودعوة منه للعباد للعودة إلى الصراط المستقيم.

٣. التمجيد للّه تعالى من آداب الدعاء وينبغي أن يكون قبل ذكر الحاجة.



للمطالعة:

ذكـر الشهيـد آية الله دستغيب (رضـوان الله عليه) في كتابه «**الاسـتعاذة**»: بعد أن دعا نوح (علـى نبيّنا وآله السلام) على الكفّار من قومه وأخذهم الطوفان، ظهر له مَلَك – وكان النبيّ نوح يعمـل في صناعة الجرار؛ فـكان يصنع الجرّة من الطين، وبعد أن تجـفّ يبيعها – فكان المَلَك يشتري منه الجرار واحدة فواحدة ويكسرها أمامه.. فغضب نوح وسأله عن سبب فعله هذا.. فقال له: الأمر لا يعنيك فأنا قد اشتريتها وأمرها إليّ.

فقال له نوح عليه السلام: صحيح، ولكن أنا الّذي صنعتها، وهي من صنعي.

قـال لـه الملك: أنت صنعتها ولم تخلقها ومع هذا فقـد غضبت على كسرها، فكيف دعوت علـى كلّ عبـاد الله فهلكوا، مع أن الله خلقهم ويحبّهم؟ فبقي مـن بعد هذه القضية يبكي وينوح حتّى سُمّي نوحاً لكثرة نياحه.

والغرض من هذه القصّة هو الإشارة إلى شفقة الخالق، فهو تعالى يحبّ مخلوقه.. وهنا يعاتب نبيّه: لِمَ دعوت على كلّ هؤلاء الناس فهلكوا؟.. ويستفاد من هذا أنّ الله تعالى يحبّ عبده، وهو في القرآن يحذّر عباده من الشيطان ويوصيهم بعدم الاغترار بالدنيا لأنّها دار خداع الشيطان.

يستفـاد من هـذه الآيات والروايات أنّ مـن يقترف الذنوب والمعاصي ثـمّ يندم على عمله ويعود إلى ربّه تائباً يفرح الله بتوبته لأنّه يحبّ عباده ولا يريد لهم العذاب بالنار.

من كتاب (هكذا تاب التائبون)

2

اعتراف وندم

وكان من دعائه عليه السلام:

هَـذا مَقَامُ مَـنْ تَدَاوَلَتْهُ أَيْدِي الذُّنُـوبِ، وَقَادَتْهُ أَزِمَّـةُ الْخَطَايَا، وَاسْتَحْوَذَ عَلَيْهِ الشَّيْطَانُ، فَقَصَّرَ عَمَّـا أَمَرْتَ بِـهِ تَفْرِيطًا، وَتَعَاطى مَا نَهَيْتَ عَنْـهُ تَعْزِيراً، كَالْجَاهِلِ بِقُدْرَتِكَ عَلَيْهِ، أَوْ كَالْمُنْكِرِ فَضْلَ إِحْسَانِكَ إِلَيْهِ، حَتَّـى إِذَا انْفَتَحَ لَهُ بَصَرُ الْهُدَى، وَتَقَشَّـعَتْ عَنْهُ سَـحَائِبُ الْعَمَى أَحْصَى مَا ظَلَمَ بِهِ نَفْسَـهُ، وَفَكَّرَ فِيمَا خَالَفَ بِهِ رَبَّهُ، فَرَأَى كَبِيرَ عِصْيَانِهِ كَبِيراً، وَجَلِيل مُخَالَفَتِهِ جَلِيلاً.

تمهيد:

بعــد أنّ مجّــد الإمام عليه السلام الله تعالى وأثنى عليه، بــدأ بالاعتراف له تعالى بما فعل بحقّ نفسه، مع الإشارة إلى أنّ الإمام بهذا يعلّمنا، ومن المعلوم لدينا أنّ الإمام معصوم لا يرتكب الذنوب، إلّا أنّ بعض المسائل الّتي تخالف المحبّة بين أهل القرب يعتبرونها- بالنسبة إلى مقام قربهم- من المعاصي، وهذا حالهم مع الله تعالى.

فبعــد التمجيــد اعتراف، فلماذا الاعتــراف، والإقرار له تعالى بمــا فعلنا؟ أليس هو العليم الخبير العالم بالسرائر، وما نفعله في إعلاننا وإسرارنا؟

هذا ما ســنجيب عنه هنا وذلك ضــمن عناوين عديدة، وسنتطرّق في نهاية الدرس إلى شرح مبسّط للجمل الواردة في هذا المقطع من الدعاء المبارك.

ما هو الإقرار؟

أن يملــك المــرء جــرأة الإقرار بما أقدم عليه من العمل الشــائن أمر يتطلّب كســراً لكبرياء النفس، أن تقف أمام الصديق الّذي أسأت بحقّه لتقول له سامحني فقد اقترفت بحقّك كذا وكذا لهي مسألة لا يستطيعها الكثيرون.

جــرأة الاعتــراف هذه لا مفــرّ منها أمــام الله تعالى، فمــا هي كبريــاء الناس أمام كبريائه؟ وما هي عظمة النفس أمام عظمة ذاته جلّ وعلا؟

قــد يبرّر بعض النــاس هروبه من الإقرار بالذنب أمام النــاس، لكن لا مجال لتبرير ذلك أمام الله تعالى.

ثمّ إنّ الإقرار بالذنب هو اعتراف، وهو أيضــاً ضــرب من ضروب الاعتذار، كما روي

ذلك عن أمير المؤمنين عليّ عليه السلام: «**الإقرار اعتذار، والإنكار إصرار**»[١].

وفي رواية أخرى عنه عليه السلام: «**رُبّ جرم أغنى عن الاعتذار عنه الإقرار به**»[٢].

وهذا المقطع الّذي قدّمنا به الدرس هو أرقى أنواع الاعتراف لله تعالى بما ارتكبه الإنسان من ظلم بحقّ نفسه، ولكن هل يكفي الإقرار فقط؟

إقرار وندم

إنّ الإقرار لا يعني شيئاً فيما لو كان الإنسان مقرّاً بما فعل وهو في نفس الوقت مفتخر به، لذا فإنّ المطلوب زيادة عن الإقرار الندم، وهو إظهار حالة الأسى والحسرة على سوء ما ارتكبه. وبدون الندم فإنّ الإقرار يُعتبر مجاهرة وجرأة على الّذي قد عُصيَ أمره.

وهذا ما أشار له أمير المؤمنين عليّ عليه السلام في الحديث المشهور: «**إنّ الاستغفار درجة العليّين، وهو اسم واقع على ستة معانٍ: أوّلها الندم على ما مضى ...**»[٣].

هل من مهلة؟

على المذنب أن يتوب، وأن يحقّق معنى التوبة الكامل بالإقرار والندم وسائر الشروط الّتي سنمرّ على ذكرها لاحقاً، ولكن هل للتوبة مهلة؟

في الأساس على المذنب أن يتوب بعد ذنبه مباشرة، ولكن لو أخّر التوبة فإنّ الله تعالى برحمته ترك له باب التوبة مفتوحاً حتّى آخر لحظات عمره، وقد جاء في الرواية عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**من تاب قبل موته بسنة قبلَ الله توبته، ثمّ قال: إنّ السنة لكثيرة، من تاب قبل موته بشهر قبلَ الله توبته، ثمّ قال: إنّ الشهر لكثير، من تاب قبل موته بجمعة قبل الله توبته، ثمّ قال: إنّ الجمعة لكثير من تاب قبل موته بيوم قبل الله**

---

(١) الريشهري، محمّد، ميزان الحكمة، دار الحديث، الطبعة الأولى، ج ٣ ص ١٨٦٠.

(٢) م.ن.

(٣) الكليني، الكافي، دار الكتب الإسلاميّة، طهران، الطبعة الخامسة، ج٢ ص ٤٣١.

توبته، ثمّ قال: إنّ يوماً لكثير، من تاب قَبْلَ أن يعاين قَبِلَ الله توبته» [١].

وفي رواية أخرى عن الإمام الباقر أو الصـادق عليهما السلام [٢] قال: «**إنّ آدم عليه السلام قال: يا ربّ سلّطت عليَّ الشيطان وأجريته منّي مجرى الدم، فاجعل لي شيئاً، فقال: يا آدم جعلت لك أنّ من همَّ من ذرّيتك بسيّئة لم تُكتب عليه، فإنّ عملها كُتبت عليه سيّئة، ومن همَّ منهم بحسنة فإنّ لم يعملها كُتبت له حسنة، فإنّ هو عملها كتبت له عشراً، قال: يا ربّ زدني، قال: جعلت لك أنّ من عمل منهم سيّئة ثمّ استغفر له غفرت له، قال: يا ربّ زدني، قال: جعلت لهم التوبة - أو قال: بسطت لهم التوبة - حتّى تبلغ النفس هذه، قال: يا ربّ حسبي»** [٣].

وقفة مع الإقرار

يقـول عليه السلام في هـذا المقطع: «**هَذا مَقَامُ مَـنْ تَدَاوَلَتْهُ أَيْدِي الذُّنُوبِ**». وكأنّه شبّه الإنسـان بالدمية الّتي تتراماها الأيدي، فمن يدٍ إلى أخرى، وكذا من يلجأ للذنوب على أنواعها فينتقل من معصية إلى أخرى.

ثمّ قال عليه السلام: «**وَقَادَتْهُ أَزِمَّةُ الْخَطَايَا**». والانقياد هو المشـي خلف الشيء. والذنوب حقيقتها انجرار الإنسان وراء الشهوة والغضب وتركه نهي العقل والشرع عن المسارعة في تلبية نداء الهوى.

فليتخيّل الواحد منّا نفسـه. أنا ذو الجاه وأنا ذو المنصب، وأنا المعروف بين الناس بالتقـوى، ولكـنّ الله يعلم بحالـي حينما أسـعى نحو الشـهوات ذليلاً تقودنـي رغباتي الجامحة أسـيراً لها، وأنا أدّعي في العلن أنّي من عباده المؤمنين. أليس هذا بالمؤسف والمشين؟!

ثم قال عليه السلام: «**وَاسْتَحْوَذَ عَلَيْهِ الشَّيْطَانُ**». والاستحواذ مرحلة أشدّ من الانقياد، فقد

(١) الكليني، الكافي، دار الكتب الإسلاميّة، طهران، الطبعة الخامسة، ج ٢ ص ٤٤٠.

(٢) الترديد من الراوي.

(٣) الكليني، الكافي، دار الكتب الإسلاميّة، طهران، الطبعة الخامسة، ج ٢ ص ٤٤٠.

لا يكون الانقياد كليّاً، وقد تكون حالة الانقياد في حالة الضغط الشديد، لكنّ الاستحواذ هو الهيمنة الكاملة على كامل القوّة العقلية بحيث تغلب الشهوات العقل بشكل لا تترك له بعد ذلك مجالاً للتحرّك في خلافها ومعارضتها.

ثمّ يتابع الدعاء: «**فَقَصَّرَ عَمَّا أَمَرْتَ بِهِ تَفْرِيطاً، وَتَعَاطى مَا نَهَيْتَ عَنْهُ تَغرِيراً**».

وهذا هو الاعتراف بالتقصير أوّلاً فيما أمر اللّه تعالى بأدائه، والإقدام على ما نهى سبحانه عن الإقدام عليه.

والتفريط هو التقصير وتضييع الأمر، والتغرير: بمعنى أنّه غرّر بنفسه فأقدمها على ما أمر فيه خطر عليها [1].

وقفة مع الندم

ثمّ تابع الدعاء: «**كَالْجاهِلِ بِقُدْرَتِكَ عَلَيْهِ، أَوْ كَالْمُنْكِرِ فَضْلَ إِحْسَانِكَ إِلَيْهِ، حَتَّى إِذَا انْفَتَحَ لَهُ بَصَرُ الْهُدَى، وَتَقَشَّعَتْ عَنْهُ سَحَائِبُ الْعَمَى، أَحْصَى مَا ظَلَمَ بِهِ نَفْسَهُ، وَفَكَّرَ فِيمَا خَالَفَ بِهِ رَبَّهُ**».

هنا كان توقّف لمعاتبة النفس، فبعد أن اعترف بما اقترف، واستيقظ الضمير ليعاتب حامله، واستعاد المذنب عقله محرّراً من أسر الشهوات، وجد نفسه من العصاة، وعرف أنّه أرتكب أمرين لا أمراً واحداً، **الأوّل** ظلمه لنفسه إذ جعلها نفساً آثمة ميّالة لكلّ دنيّ، **وثانياً** جرأته على من وهبه كلّ خير وفتح له كلّ دروب الهداية فعصاه وخالف أمره.

وأمّا التشبيه بالجاهل في قوله عليه السلام «**كَالْجاهِلِ بِقُدْرَتِكَ عَلَيْهِ**» فالمراد من هذا التشبيه الاعتراف باجترائه على ما ارتكب مع العلم بقدرة اللّه عليه، والاعتراف بفضل إحسانه إليه حتّى كأنّه جاهل أو منكر لذلك، وحاصله: «**مزيد من الإقرار بالذنب والعصيان، المندوب[2] إليه عند طلب العفو والغفران**»[3].

---

(١) المدني الشيرازي، السيد عليّ خان، رياض السالكين في شرح صحيفة سيد الساجدين عليه السلام، ج ٤ ص ٣٨٧.

(٢) المندوب بمعنى المستحب وقد تقدم أنه من آداب الدعاء.

(٣) المدني الشيرازي، السيد عليّ خان، رياض السالكين في شرح صحيفة سيد الساجدين عليه السلام، ج ٤ ص ٣٨٧.

ومن ثمّ قال: «**فَرَأى كَبِيْرَ عِصْيَانِهِ كَبِيْراً، وَجَلِيل مُخالفَتِهِ جَلِيْلاً**».

الكبيـر هنـا بمعنى العظيـم، أي فرأى عظيم معصـيته وأنّ ما ارتكبـه ليس بالأمر السهل والعاديّ، وهذا ما أوحى به الشيطان قبل إقدامه على المعصية، لكي يوقعه فيها ويجرّئه عليها.

والمعنى: أنّه بسبب إحصائه ما ظلم به نفسه، وتفكّره فيما خالف به ربّه، علم كبر كبيـرِ عصـيانه أو كثرة كثيره، وعلم جلالـة جليل مخالفته، بعـد جهله بذلك أو غفلته عنه، لعدم ضبطه له وتفكّره فيه[1].

(١) المدني الشيرازي، السيد عليّ خان، رياض السالكين في شرح صحيفة سيد الساجدين عليه السلام، ج ٤ ص ٣٩٥.



المفاهيم الأساس:

١. بعد تمجيد الله تعالى ينبغي الاعتراف بالذنب أمامه جلّ وعلا.

٢. بعد الاعتراف لا بدّ من الشعور بالندم أيضاً، لأنّ من لا يندم فإنّما هو متجرّئ على الذنب

٣. لا بدّ من الاستعجال بالتوبة، ومن أخّرها فإنّ الله برحمته ترك بابها مفتوحاً إلى آخر لحظات عمر الإنسان.

٤. كيف أعصي الله تعالى بما أنعم عليّ من النعم، وأتجرّأ عليه كالجاهل بأنّي أعصيه بما قدّرني عليه؟!



للمطالعة:

كان فـي بني اسرائيل شابّ عَبَدَ الله عشريـن سنة، ثمّ عصاه عشرين سنة، ثمّ نظر في المرآة فرأى الشيب في لحيته فساءه ذلك فقال:

إلهيّ!.. أطعتك عشرين سنة، ثمّ عصيتك عشرين سنة، فإن رجعت إليك أتقبلني؟.. فسمع قائلاً يقول:

أحببتنا فأحببناك، وتركتنا فتركناك، وعصيتنا فأمهلناك، وإن رجعت قبلناك.

هذه الرحمة الإلهيّة كانت لجميع الأمم، ولهذه الأمّة أكثر من تلك ألف مرّة.

و على كلّ حال يجب أن يكون للمرء أمل بالله.

أوصى لقمان الحكيم ابنه: «**يا بنيّ خف الله خوفاً لو أتيت يوم القيامة ببرّ الثقلين خفت أن يعذّبك، وارجُ الله رجاءً لو وافيت القيامة بإثم الثقلين رجوت أن يغفر الله لك**».

يقـول أبو بصير: سألت الصادق عليه السلام: ما معنى التوبة النصوح الّتي أمرنا؟.. قال: «**يتوب العبد من ذنب ثمّ لا يعود فيه**»

قلت: وأيّنا لا يعود؟..

فقال: «**يا أبا محمّد!.. إنّ الله يحبّ من عباده المفتن التوّاب**».

جاء في «**حقائق الأسرار**» أنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله قال:

«**... يا بن آدم!.. إنّك إن تذنب حتّى يبلغ ذنبك عنان السماء ثمّ تستغفرني أغفر لك ولا أبالي**».

قال الشاعر:

ألا مَن لنفسي بالهوى قد تمادتِ — إذا قلت قد مالت عن الجهل عادتِ
وحسب امرئ شرّاً بإهمال نفسه — وإمكانها من كلّ شيء أرادتِ
تزاهدت في الدنيا وإنّي لراغب — أرى رغبتي ممزوجةً بزهادتي

من كتاب (هكذا تاب التائبون)

3

القلب المؤمّل

وكان من دعائه عليه السلام:

فَأَقْبَلَ نَحْوَكَ مُؤَمِّلاً لَكَ، مُسْتَحِيِياً مِنْكَ، وَوَجَّهَ رَغْبَتَهُ إِلَيْكَ ثِقَةً بِكَ، فَأَمَّكَ بِطَمَعِهِ يَقِيناً، وَقَصَدَكَ بِخَوْفِهِ إِخْلَاصاً، قَدْ خَلَا طَمَعُهُ مِنْ كُلِّ مَطْمُوعٍ فِيهِ غَيْرِكَ، وَأَفْرَخَ رَوْعُهُ مِنْ كُلِّ مَحْذُورٍ مِنْهُ سِوَاكَ.

تمهيد:

عندما أتّخذُ القرار بالعودة والتراجع والتوبة إلى الله تعالى فلماذا أتّخذُ هذا القرار؟

لا بدّ أن أحد هذه الدوافع هو الّذي حدا بي للعودة إلى الجادة الصواب:

١ – علمي اليقينيّ بأنّي في مكان غير صحيح، ولا بدّ من تصحيح الوضع القائم. فكوني عبداً للّه يحتّم عليّ الالتزام بأوامر مولاي، وانسجاماً منّي مع نفسي الّتي تحبّ الاستقامة.

٢ – خوفي من العقوبة الإلهيّة، والّتي أوعد اللّه تعالى بها العاصين من العباد، وهذا الدافع هو أكثر الدوافع الّتي تُلجئ العاصين لطلب المغفرة.

وقد تكون هنالك دوافع أخرى غير تلك الّتي ذكرناها. ولكنّ حالة التائب في حال التوبة لا تختلف بين دافع وآخر، فكلّ التائبين لهم حالات قلبيّة خاصّة، وقد ذكرها دعاء التوبة، وسنتعرّض لها بالتفصيل إن شاء اللّه تعالى.

الحياء من الحقّ

يقول عليه السلام «**فَأَقْبَلَ نَحْوَكَ مُؤَمِّلاً لَكَ، مُسْتَحْيِياً مِنْكَ**».

الحياء من اللّه تعالى هو أكبر الموانع الّتي تمنع الإنسان من الوقوع في الذنب، ولذا ربط الكثير من الروايات الشريفة الحياء بالإيمان، فعن الإمام الصادق عليه السلام: «**لا إيمان لمن لا حياء له**»[1].

وقد يُظنّ أنّ الحياء المقصود في الرواية الشريفة هو الحياء من الناس، وهو الحالة

(١) الكليني، الكافي، دار الكتب الإسلاميّة، طهران، الطبعة الخامسة، ج ٢ ص ١٠٦.

النفسيّة الّتي تحصل بين رجل وامرأة، إلّا أنّ هنالك حياء آخر وهو الحياء من الله سبحانه وتعالى، وقد أشار له العديد من الروايات الشريفة أيضاً، فقد روي عن الرسول الأكرم ﷺ: «**أكلّكم يحبّ أن يدخل الجنّة؟**» قالوا: نعم يا رسول الله! قال ﷺ: «**قصّروا من الأمل، وثبّتوا آجالكم بين أبصاركم، واستحيوا من الله حقّ الحياء**»[1].

وفي شرح عميق لمعنى الحياء أشار الإمام الصادق عليه السلام له فيما روي عنه: «**الحياء نور جوهره صدر الإيمان، وتفسيره التثبت عند كلّ شيء ينكره التوحيد والمعرفة**»[2].

فإذا كان الواحد منّا يعمل في مكان وقد نبّهه صاحب العمل إلى أمور لا ينبغي الإقدام عليها في عمله، فحينما يخالف أمره يردعه الحياء عن ذلك، ولو تجرّأ وخالف الأمر وطالبه ربّ العمل وساءله عن تصرّفه لأحسّ بالخجل والحياء منه، فهذه المقاربة البسيطة توضح الحدّ الأدنى من الحياء المطلوب من العبد أمام ربّه، فكيف إذا كان الله تعالى هو صاحب المنّة علينا بكلّ ما ننعم به في الوجود، بل مدينون له تعالى بأصل الوجود، وفي استمرار الوجود، وتوالي النعم؟ أفلا يجدر بالعبد أن يستحيي ممَّن أفاض عليه كلّ تلك النعم الّتي لا تحصى؟

ولهذا أكّدت الروايات العديدة على الحياء من الله تعالى على وجه الخصوص، كما يستحيي الواحد من جيرانه من التضييق عليهم، أو التسبّب بأذاهم، فعن رسول الله الأكرم ﷺ: «**استحيِ من الله استحياءك من صالحي جيرانك، فإنّ فيها زيادة اليقين**»[3].

بل هو أفضل الحياء وأشرفه، فعن أمير المؤمنين عليّ عليه السلام: «**أفضل الحياء استحياؤك من الله**»[4].

(١) الريشهري، محمّد، ميزان الحكمة، دار الحديث، الطبعة الأولى، ج ١ ص ٤٢٧.
(٢) الميرزا النوري، مستدرك الوسائل، ج٨، ص٤٦٤.
(٣) م.ن.
(٤) م.ن.

وهـذا الحياء يكون من خلال الترجمة العمليّة لما يستتبعه ويلحق به ليتحقّق معناه الحقيقيّ الّذي أشارت له الرواية عن رسول الله الأكرم ﷺ: «**استحيوا من الله حقّ الحياء، فقيل: يا رسول الله ومن يستحيي من الله حقّ الحياء؟ فقال ﷺ: من استحيا من الله حقّ الحياء فليكتب أجله بين عينيه، وليزهد في الدنيا وزينتها، ويحفظ الرأس وما حوى، والبطن وما وعى، ولا ينسى المقابر والبلى**» [١].

والحياء من الله بعد الذنب مطلوب أيضاً، لا سيّما في طلب التوبة منه تعالى، وكأنّ الإنسان يخاطب ربّه وقد طأطأ رأسه حياء منه قائلاً: يا إلهيّ إنّي خجل منك ومن نفسي لأنيّ قد وضعت نفسي في موضع سخط، ولكنّ الشيطان قد غلبني هذه المرّة، فتب عليّ يا خير الراحمين. وهذا النوع من الحياء ألمح له أمير المؤمنين عليه السلام فيما روي عنه: «**الحياء من الله يمحو كثيراً من الخطايا**» [٢].

الطمع المحمود

يقول عليه السلام: «**قَدْ خَلاَ طَمَعُهُ مِنْ كُلِّ مَطْمُوعٍ فِيهِ غَيْرِكَ**».

الطمع في المغفرة هي الحالة الّتي يشير إليها الإمام عليه السلام في هذ المقطع من الدعاء. ولعلّ الطمع هنا يتجلّى بأفضل ما يمكن تصويره، فالمتبادر من لفظ الطمع غالباً هو ذلك المعنى السيّئ المعروف المرادف للجشع، أمّا هذا الطمع فهو الطمع المحمود، وهو الأمل الوحيد لدى العاصي في إزالة آثار ما ارتكبه من الذنوب.

حينما يقع الإنسان في ورطة ما أو مشكلة لا يقدر على الفكاك منها، يتوجّه دائماً لأقرب الناس إليه الأب أو الأمّ أو الأخ أو الصديق، وقد يلجأ للجار، وقد يفكّر بمن هو أقدرهم على تخليصه ممّا وقع فيه، ولكن حين يظلم نفسه ويقحمها في دائرة السخط الإلهيّ، فإلى مَن يلتجئ؟

(١) الريشهري، محمّد، ميزان الحكمة، دار الحديث، الطبعة الأولى، ج ١ ص ٧١٩.

(٢) م.ن.

لن يفيدك الصديق شيئاً، ولا قرابة أحد ستنفعك. إنّ أكبر قوّة في الدنيا لن تغنيك حينها ولن تستطيع غفران ذنبك.

فقــط من اجتــرأت عليه، قادر على الاقتصــاص منك، يســتطيع أن يعفو عنك، فلا تفكّــر فــي اللجوء لغيره. أخلِ قلبك من الآخرين، لأنّهم لن يغنوا عنك شــيئاً. لن يدرأوا عنك العذاب، ولن يتحمّلوا عنك وخز الضــمير، ولن يشــفعوا لــك لأنّهم يحتاجون لمن يشــفع لهم، توجّــه بكلّك إلى الله تعالى الّــذي قال: **﴿وَتُوبُوا إِلَى اللهِ جَمِيعًــا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾** [(١)]. وقال أيضــاً: **﴿إِنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ﴾** [(٢)]. نعم هو يحبّك حينما تلجأ إليــه لتعتذر من جرمك، يحبّك حينما لا تتمادى في إشــباع رغباتــك فيما حرّم عليك، ويحبّك حينما يرى ضميرك ما زال يقظاً وحيّاً، فعن أبي بصير قال: قلت لأبي عبد الله (الصــادق) عليه السلام: « **﴿يَا أَيُّهَــا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللهِ تَوْبَــةً نَّصُوحًا﴾** [(٣)] **قال** عليه السلام: **هو الذنــب الّــذي لا يعــود فيه أبداً. قلت: وأيّنا لم يعد؟ فقال: يــا أبا محمّد إنَّ الله يحبُّ من عباده المفتن التوّاب»** [(٤)].

بــل إنّ الله تعالــى يفرح بتوبتنــا كما في الروايــة عن الإمام الباقــر عليه السلام: «**إنّ الله تبــارك وتعالــى أشــدّ فرحاً بتوبة عبــده من رجل أضــلَّ راحلته وزاده فــي ليلة ظلماء فوجدها، فالله أشدّ فرحاً بتوبة عبده من ذلك الرجل براحلته حين وجدها»** [(٥)].

---

(١) سورة النور: الآية ٣١.

(٢) سورة البقرة: الآية ٢٢٢.

(٣) التحريم: ٨.

(٤) الحر العاملي، محمّد بن الحسن، وسائل الشيعة، مؤسّسة أهل البيت، الطبعة الثانية ١٤١٤ ه.ق.، ج ١٦ ص ٧٢.

(٥) م.ن. ج ١٦ ص ٧٣، وعقّب قدّس سرّه على الحديث قائلاً: أقول: الفرح هنا مجاز وهو ظاهر.



المفاهيم الأساس:

١. استحيِ من اللّه تعالى كما تستحي من ربّ عملك حين تخالف أمره.
٢. الحياء من الحقّ من الموانع الّتي تصدّ المرء عن الوقوع في الذنب.
٣. اطمع باللّه فقط، ولا تطمع بكلّ من لا يقدر على نفعك حين الحساب.
٤. لا تخشَ من طلب التوبة، فاللّه تعالى يحبّ التوّابين.



للمطالعة:

اعلـم أنّ التوبــة عند رؤية آيات العذاب، وعند دنوّ الأجل غير مقبولة، وهي كتوبة فرعون عند غرقه اذ لم يقبل توبته، كما جاء في الآية الشريفة:

﴿ **وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآنَ** ﴾[1].

وكما يستفاد أيضاً من قوله تعالى: ﴿ **قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ * أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنْتُم بِهِ آلآنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ** ﴾[2].

إنّ أبــواب التوبة تغلق عند نــزول العذاب، ومثل هذه التوبة توبــة اضطرارية ولا تقبل.. قال محمّــد الهمدانــيّ: سألت الإمــام الرضا عليه السلام: لأيّ علّــة أغرق الله فرعون، وقــد آمن به وأقرّ بتوحيده؟.. قال: «**لأنّه آمن عند رؤية البأس، والإيمان عند رؤية البأس غير مقبول**»[3].

إذاً يجب على المرء أن يبادر للتوبة عمّا سلف من ذنوبه قبل أن يرى آيات العذاب، وقبل أن ينزل به الموت.

قال الشاعر:

سـبحـان ربّـك مـا أراك تـتـوب ... والرأس منـك بشيبه مخضـوب
سـبحـان ربّـك ذي الجـلال أمـا تـرى ... نُـوَبَ الزمـان عليـك تـنـوب
سبحـان ربّـك كيـف يغلبـك الهـوى ... سبحانـه إنّ الهـوى لغـلـوب
سـبحـان ربّـك مـا تـزال ومنـك ... عـن إصـلاح نفسـك فتـرة ونكـوب
سـبحـان ربّـك كيـف يلتـذّ امـرؤ ... بالعيـش وهـو بنفسـه مطلـوب

من كتاب (هكذا تاب التائبون)

---

(١) سورة النساء: الآية ١٨.

(٢) سورة يونس: الآيتان٥٠، ٥١.

(٣) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج٦ ص٢٣.

4

سيماء التائبين

وكان من دعائه عليه السلام:

فَمَثَّلَ بَيْنَ يَدَيْكَ مُتَضَرِّعاً، وَغَمَّضَ بَصَرَهُ إِلَى الأَرْضِ مُتَخَشِّعاً، وَطَأْطَأَ رَأْسَهُ لِعِزَّتِكَ مُتَذَلِّلاً، وَأَبَثَّكَ مِنْ سِرِّهِ مَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنْهُ خُضُوعاً، وَعَدَّدَ مِنْ ذُنُوبِهِ مَا أَنْتَ أَحْصَى لَهَا خُشُوعاً وَاسْتَغَاثَ بِكَ مِنْ عَظِيمِ مَا وَقَعَ بِهِ فِي عِلْمِكَ وَقَبِيحِ مَا فَضَحَهُ فِي حُكْمِكَ مِنْ ذُنُوبٍ أَدْبَرَتْ لَذَّاتُهَا فَذَهَبَتْ، وَأَقَامَتْ تَبِعَاتُهَا فَلَزِمَتْ.

تمهيد:

عندمـا نسـير في الحياة ونعاشـر النـاس فإنّنا لا يمكن أن نعاشـرهم بـدون مراعاة لأخلاقيّـات المخالطـة، والآداب الّتـي يراعيها النـاس فيما بينهم، إذ لا بدّ من ضـوابط وأصـول لكي لا يصـبح أفراد المجتمعات الإنسانية ذئاباً ينهش بعضـها بعضاً، ومن ذلك آداب الاعتذار.

فحينمـا يخطـىء الواحد منّا ويلجـأ للاعتذار من الآخر، لا بـدّ وأن يراعي في ذلك آداباً خاصّـة، وكمثـال على ذلك تخيّل لو أنّ رجلاً قد أخطـأ بحقّك، وجاء إليك ليعتذر وقد رفع رأسـه ونظر إليك من طرفي عينيه، وقد شمخ بأنفه، وأظهر لك عدم المبالاة، وقال لك من طرف لسانه: آسف، ومشى.

إنّ أي واحد منّا لو حصـل هذا معه، سـيُعتبر هذا النوع من الاعتذار إهانة جديدة، ولن يقبل هذا النوع من التصرّف المشين.

وكذا الحال بين الإنسـان وربّه، فإنّ للتوبة أصـولاً وآداباً، ينبغي مراعاتها لكي تكون التوبة بالشكل الّذي يرضي اللّه تعالى، ولا يزيد من سخطه علينا، فما هي هذه الآداب؟

آداب التائب

إنّ التوبة هي فعل يتضمّن الدعاء إلى اللّه تعالى؛ لغفران الذنب والصفح عمّا سلف، ولذا ينبغي مراعاة أدب الدعاء عند طلب التوبة من اللّه تعالى، ومن هذه الآداب:

١ - إقبال القلب:

بمعنـى أن يكون التوجّـه للّه تعالى بكلّ الفكـر والقلب، لا أن يكون الترديد باللسـان

والشـفتين لكلمات والقلب فـي غفلة عمّا يقول، ففي الرواية عن كميـل بن زياد أنّه قال لأمير المؤمنين عليه السلام: «**العبد يصيب الذنب فيستغفر الله، فقال عليه السلام: يا ابن زياد، التوبـة، قلـت: ليس؟ قال عليه السلام: لا، قلت: كيف؟ قال عليه السلام: إنَّ العبد إذا أصـاب ذنباً قال: أستغفر الله بالتحريك، قلت: وما التحريك؟ قال عليه السلام: الشفتان واللسان يريد أن يتبع ذلك بالحقيقة، قلت: وما الحقيقة؟ قال عليه السلام: تصـديق القلب وإضـمار أن لا تعود إلى الذنب الّذي استغفر منه...**»[1].

وعن أبي عبد الله الصـادق عليه السلام قال: «**قال أميـر المؤمنين عليه السلام: لا يقبل الله عزّ وجلّ دعاء قلب لاهٍ**»[2].

٢ – الاستيقان بالإجابة:

بـأن تكون على يقين بأنّ الله تعالى قد وعد العباد بقبولهم في حال توبتهم وندمهم، فلا يدخل اليأس إلى قلبك، فبدل أن تحصل على التوبة تكون قد ارتكبت إحدى الكبائر وهـي اليأسـ من روح الله تعالى، وقـد جاء في الرواية عن الإمام الصـادق عليه السلام: «**إنّ الله عزّ وجلّ لا يسـتجيب دعاء بظهر قلب ساهٍ، فإذا دعوت فأقبل بقلبك ثمّ اسـتيقن بالإجابة**»[3].

وعنه عليه السلام أنّه قال: «**إذا دعوت فأقبل بقلبك وظُنّ حاجتك بالباب**»[4].

٣ – البكاء:

كما دعت لذلك الروايات الشـريفة، فإنّ البكاء أجلـى مظاهر الندم الحقيقيّ، وفي الرواية عن الإمام الصـادق عليه السلام قال: «**مـا من عين إلّا وهي باكية يـوم القيامة، إلّا عيناً بكت من خوف الله، وما اغرورقت عين بمائها من خشـية الله عزّ وجلّ، إلّا حرّم**

---

(١) الحر العاملي، محمّد بن الحسن، وسائل الشيعة، مؤسّسة أهل البيت، الطبعة الثانية ١٤١٤ ه.ق.، ج ١٦ ص ٧٨.

(٢) الكليني، الكافي، دار الكتب الإسلاميّة، طهران، الطبعة الخامسة، ج ٢ ص ٤٧٣.

(٣) م.ن.

(٤) م.ن.

الله عزّ وجلّ سائر جسده على النار، ولا فاضت على خدّه فرهق ذلك الوجه قترٌ ولا ذلةٌ، وما من شيءٍ إلّا وله كيلٌ ووزنٌ إلّا الدمعة، فإنّ الله عزّ وجلّ يطفئ باليسير منها البحار من النار، فلو أنّ عبداً بكى في أمّةٍ لرحم الله عزّ وجلّ تلك الأمّة ببكاء ذلك العبد»[1].

وفي رواية أخرى عن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: «**ما من قطرة أحبُّ إلى الله عزّ وجلّ من قطرة دموع في سواد الليل مخافةً من الله لا يراد بها غيره**»[2].

٤ – الثناء على الله

وقد تقدّم في الدرس الأوّل سبب استهلال الإمام عليه السلام دعاء التوبة بالتمجيد، ونضيف على ما مرَّ روايتين فعن الإمام الصادق عليه السلام: إنّ في كتاب أمير المؤمنين عليه السلام: «**إنّ المدحة قبل المسألة فإذا دعوت الله عزّ وجلّ فمجّده**»[3].

وعنه عليه السلام في رواية أخرى: «**إيّاكم إذا أراد أحدكم أن يسأل من ربّه شيئاً من حوائج الدنيا والآخرة حتّى يبدأ بالثناء على الله عزّ وجلّ والمدح له والصلاة على النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم ثمّ يسأل الله حوائجه**»[4].

وكذا الصلاة على محمّد صلى الله عليه وآله وسلم وآل بيته الكرام فإنّها من آداب الدعاء أيضاً كما في الرواية السابقة.

٥- الاستغفار في الأسحار:

فهذا الوقت محبوب لدى الله تعالى، وبارك الله تعالى في المستغفرين فيه، وفي الرواية عن الإمام الصادق عليه السلام: «**قال أبي عليه السلام: قال أمير المؤمنين عليه السلام: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: إنّ الله جلّ جلاله إذا رأى أهل قرية قد أسرفوا في المعاصي وفيها**

---

(١) الكليني، الكافي، دار الكتب الإسلاميّة، طهران، الطبعة الخامسة، ج ٢ ص ٤٨٢ .

(٢) م.ن.

(٣) م.ن، ج٢ ص٤٨٤.

(٤) م.ن.

ثلاثة نفر من المؤمنين ناداهم جلّ جلاله: يا أهل معصيتي لولا مَن فيكم من المؤمنين المتحابّين بجلالي، العامرين بصلاتهم أرضي ومساجدي والمستغفرين بالأسحار خوفاً منّي لأنزلت بكم عذابي ثمّ لا أبالي» [١].

وعن الإمام الكاظم، عن أبيه، عن عليّ عليهم السلام: «**إنَّ الله عزَّ وجلّ إذا أراد أن يصيبَ أهلَ الأرض بعذاب قال: لولا الذين يتحابون بجلالي ويعمرون مساجدي ويستغفرون بالأسحار لأنزلت عذابي**» [٢].

بين سطور الدعاء

يقول عليه السلام: «**فَمَثَّلَ بَيْنَ يَدَيْكَ مُتَضَرِّعاً، وَغَمَّضَ بَصَرَهُ إلَى الأَرْضِ مُتَخَشِّعاً، وَطَأطَأَ رَأسَهُ لِعِزَّتِكَ مُتَذَلِّلاً**».

فهذه هي الآداب الظاهرية للتائب من إظهار الذلّ والعبودية والندم أمام المعبود، وقوله متضرّعاً إشارة لقوله تعالى: ﴿**ادْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ**﴾ [٣]، «**وذلك لما فيه من الاعتراف بذلّ العبوديّة وعزّة الربوبيّة**» [٤].

وقوله عليه السلام: «**وَطَأطَأَ رَأسَهُ لِعِزَّتِكَ مُتَذَلِّلاً**»: والطأطأة هي خفض الرأس، والعزّة هي الرفعة والامتناع والشدّة والغلبة، وفي التنزيل: ﴿**مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا**﴾ [٥]، أي: من كان يريد بعبادة غير الله العزّة فإنّما العزّة لله وحده لا لغيره، عزّة الدنيا وعزّة الآخرة جميعاً، فليطلبها منه لا من غيره [٦].

وقوله عليه السلام: «**وَاسْتَغَاثَ بِكَ مِنْ عَظِيم مَا وَقَعَ بِهِ فِي عِلْمِكَ وَقَبِيحِ مَا فَضَحَهُ فِي حُكْمِكَ مِنْ ذُنُوب أدْبَرَتْ لَذَّاتُهَا فَذَهَبَتْ، وَأقَامَتْ تَبِعَاتُهَا فَلَزِمَتْ**».

---

(١) الحر العاملي، محمّد بن الحسن، وسائل الشيعة، مؤسّسة أهل البيت، الطبعة الثانية ١٤١٤ ه.ق.، الحر العاملي، ج ١٦ ص ٩٢.

(٢) م.ن، ج ١٦ ص٩١.

(٣) سورة الأعراف، الآية: ٥٥.

(٤) المدني الشيرازي، السيد عليّ خان، رياض السالكين في شرح صحيفة سيد الساجدين عليه السلام، ج ٤ ص ٤٠١.

(٥) سورة فاطر، الآية: ١٠.

(٦) المدني الشيرازي، السيد عليّ خان، رياض السالكين في شرح صحيفة سيد الساجدين عليه السلام، ج ٤ ص ٤٠١.

فساعة اللّذة تنتهي، وحينها تأتي ساعات الندامة، اللّذة الدنيويّة الّتي غالباً ما تتبعها قذارة البدن، وقذارة السمعة أحياناً تنتهي بثوانٍ أحياناً، ولكن قد تكون هذه الثواني القليلة مفتاح جهنّم، حيث لا تنفع الندامة، لأنّ الذنب ما لم يُستغفر منه لزم، واللزوم هو الثبات والدوام [1]، فهل نشتري اللّذة الفانية بالذنب اللازم في الرقاب المانع من نزول الرحمة الإلهيّة؟!

(١) المدني الشيرازي، السيد عليّ خان، رياض السالكين في شرح صحيفة سيد الساجدين عليه السلام، ج ٤ ص ٤٠١.



المفاهيم الأساس:

١. للدعاء آداب خاصّة ولا بدّ من مراعاة خطاب يليق باللّٰه تعالى.

٢. من آداب الدعاء للتوبة: إقبال القلب، الاستيقان بالإجابة، البكاء، الثناء على اللّٰه، الاستغفار في الأسحار.



للمطالعة:

ذكر المرحوم الشيخ البهائيّ رضوان الله عليه في شرح الأربعين:

لا شكّ في وجوب الإسراع في التوبة.. فالمعاصي كالسموم للأبدان، وكما أنّ من يتناول السمّ عليه الإسراع إلى المعالجة لكي لا يموت، فكذا الخائف من موت الأبد يجب عليه التعجيل في ترك الذنب والمبادرة إلى التوبة.

و المذنب المتهاون في التوبة ويرجئها إلى وقت آخر، يجعل نفسه بين خطرين إذا نجا من أحدهما وقع في الآخر:

أوّلهما: حلول الأجل بغتة، بحيث لا تتسنّى له اليقظة من سبات الغفلة، إلّا أنّ يرى أجله قد حان، كما جاء في القرآن الكريم:

﴿ أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتاً وَهُمْ نَائِمُونَ ﴾[1].

وقال تعالى أيضاً في كتابه الكريم:

﴿ وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ * وَلَن يُؤَخِّرَ اللهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾[2].

قيل في تفسير هذه الآية إن المحتضر يقول لملك الموت: أمهلني يوماً لأتوب من ذنوبي، وأعدّ نفسي للآخرة، فيقول له: قُضي أجلك، أي أنّ باب التوبة يغلق بوجهه، وتخرج روحه من بدنه، فتأخذه الحسرة والندم على ما فرّط فيه من عمره، وحتّى أنّ أصل الإيمان قد يتعرّض في مثل هذه المواقف للخطر.

---

(١) سورة الأعراف: الآية ٩٧.

(٢) سورة المنافقون: الآيتان ١٠، ١١.

وثانيهما: إنّه إذا لم يطهرّ قلبه من الذنوب – عن طريق التوبة – فإن الآثام تتراكم على قلبه حتّى لا يعـود من الممكن تطهيره، لأنّ كلّ معصية يقترفهـا الإنسان تجعل حجاباً من الظلمة على قلبه، كالنَفس على المرآة يُعتّم على صفوها.

وإذا تراكمت الذنوب على القلب زادته كدورة، وتتصلّب الكدورة تدريجياً حتّى تصبح طبقة صلبـة، وتغدو في عداد طباع الإنسان، بحيث يطبع عليه ولا تعد له قدرة على استيعاب الحقّ أو القبول به.. أيّ أنّه يفقد على أثر تراكم الذنوب صفاءه ونقاءه.

أجـل، مثل هذا القلب يسمّى في الروايات بالقلب المنكوس أو القلب الأسود.. قال الإمام الباقر عليه السلام:

«ما من شـيء أفسـد للقلب من خطيئتـه. إنّ القلب ليواقع الخطيئة فـلا تزال به حتّى تغلب فتصيّر أعلاه أسفله»[١].

و قال في حديث آخر: «**لم يرجع صاحبه إلى خير أبداً**»[٢].

و هـذا يدلّ علـى أنّ صاحب مثل هذا القلـب لا يكفّ عن ذنوبه ولا يتـوب منها، وإذا قال بلسانـه: تبت، فهو مجـرّد كلام يجري على لسانه، ولا يترتّب عليه أيّ أثـر، وهو كمن يدّعي أنّه غسل ثيابه ؛ فمثل هذا الادّعاء لا يؤدّي إلى طهارة ثيابه أبداً. وقد يكون شخصاً كهذا على درجة من اللامبالاة في دينه حتّى أنّ أساس إيمانه يكون عرضة للخطر، وتنتهي عاقبته إلى الشرّ.

قال الشاعر:

مضـى أمسـك الباقـي شهـيـداً معدلاً	وأصبحـت فـي يـوم عليـك شهيـد
فـإن كنـت بالأمسـ اقـترفـت إسـاءةً	فثـنِّ بإحسـان وأنـت حميـد
و لا تُـرجِ فعـل الخيـر يومـاً إلـى غـدٍ	لعـلّ غـداً يأتـي وأنـت فقيـد

من كتاب (هكذا تاب التائبون)

(١) أصول الكافي، ج٢ ص٢٦٨ ح١، بحار الأنوار: ج٧٣ ص٣١٢ح١.

(٢) أصول الكافي، ج٢ ص٢٧٣ح٢٠.

5

طلب العفو

وكان من دعائه عليه السلام:

لا يُنْكِرُ يَا إلهِي عَدْلَكَ إنْ عَاقَبْتَهُ، وَلا يَسْتَعْظِمُ عَفْوَكَ إنْ عَفَوْتَ عَنْهُ وَرَحِمْتَهُ؛ لأنَّكَ الرَّبُّ الْكَرِيمُ الَّذِي لا يَتَعَاظَمُهُ غُفْرَانُ الذَّنْبِ الْعَظِيم. اللَّهُمَّ فَهَا أَنَا ذَا قَدْ جِئْتُكَ مُطِيعاً لأَمْرِكَ فِيمَا أَمَرْتَ بِهِ مِنَ الدُّعَاءِ، مُتَنَجِّزاً وَعْدَكَ فِيمَا وَعَدْتَ بِهِ مِنَ الإجَابَةِ إذْ تَقُولُ {أدْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ}.

تمهيد:

في مشهد رائع من مشاهد الحجّ، حينما يرتدي جميع الناس بكلّ ألوانهم وأجناسهم ومذاهبهـم لباسـاً واحداً، ولونـاً واحـداً، ويتوجّهون إلـى بارئهم الواحـد: لبّيك اللهم لبّيك.

وتسـمّى هذه الشـعيرة بالتلبية، وبها يتمّ الإحرام للعمـرة أو الحجّ. ولكن وراء جملة «**لبّيك اللّهم لبّيك**» ما وراءها، فما معنى التلبية هنا؟ وهل لها مداليل أبعد من مداليل مناسـك الحـجّ والعمرة، لعلّ نقل ما كانت عليه حالـة الأئمّة من أهل البيت عليهم السلام حالة التلبية يشـير إلى المغزى الأعمق من وراء هذه الكلمات الّتي قد يرددها اللسـان أحياناً ولا يعيها القلب، فقد روي عمّن رأى الإمام الصـادق عليه السلام «**وهو محرم قد كشـف عن ظهره حتّى أبداه للشمس وهو يقول: لبّيك في المذنبين لبّيك**»[1].

وفي رواية عنه عليه السلام قال: التلبية: «**لبّيك اللّهم لبّيك لبّيك لا شريك لك لبّيك إنّ الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك لبّيك ذا المعارج لبّيك، لبّيك داعياً إلى دار السـلام لبّيـك، لبّيك غفّار الذنـوب لبّيك، لبّيك أهل التلبية لبّيـك، لبّيك ذا الجلال والإكرام لبّيك، لبّيك مرهوباً ومرغوباً إليك لبّيك، لبّيك تبدئ والمعاد إليك لبّيك، لبّيـك كشّـاف الكـرب العظـام لبّيك، لبّيـك عبدك وابن عبـدك لبّيك، لبّيـك يا كريم لبّيك**»[2].

(١) الكليني، الكافي، دار الكتب الإسلاميّة، طهران، الطبعة الخامسة، ج ٤ ص ٣٣٦.

(٢) م.ن. ج ٤ ص ٣٣٥.

دعوة اللّه

يقول اللّه تعالى في محكم آياته: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ (١).

وعد إلهيّ ذكرته الآية الكريمة، واللّه تعالى حينما يعد لا شكّ بأنّ وعده هو الحقّ، يقول عزّ وجلّ في آية أخرى: ﴿وَعْدَ اللهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ قِيلاً﴾ (٢).

فإذا قال تعالى: ادعوني أستجب لكم، يعني أنّه حتّى المذنب وعده بقبول توبته كما تدلّ على ذلك آيات أخر كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُواْ أَنَّ اللهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (٣).

فتأمّل كيف أنّ اللّه تعالى وهو الغنيّ المطلق وكلّ ما في الوجود محتاج إليه، والّذي خلقنا عبيداً تجب علينا طاعته، نسيء الخدمة ونعصيه، وهو في المقابل يمنحنا الفرصة تلو الفرصة، ويعدنا بقبول الذنب، وفي المقابل فإنّنا نتمادى ونتجرّأ ونستثمر ما أنعم به علينا في عصيانه، وهو يترك الباب لنا مفتوحاً لنلج منه ساعة أردنا، ويزيد في فرصنا ويرغّبنا في التوبة حتّى تصل الروح إلى الحلقوم.

«أنا الَّذي أمهلتني فما ارْعَوَيْتُ، وَسَتَرْتَ عَلَيَّ فَمَا اسْتَحْيَيْتُ، وَعَمِلْتُ بِالْمَعاصي فَتَعَدَّيْتُ، وَأسْقَطْتَني مِنْ عَيْنِكَ فَما بالَيْتُ، فَبِحِلْمِكَ أمْهَلْتَني وَبِسِتْرِكَ سَتَرْتَني حَتّى كَأنَّكَ أغْفَلْتَني، وَمِنْ عُقُوباتِ الْمَعاصي جَنَّبْتَني حَتّى كَأنَّكَ اسْتَحْيَيْتَني...» (٤)

هذه دعوة اللّه فكيف يستجيب العبد لها؟

إجابة العبد

بعد أن يمعن العبد في مخالفة مولاه، ويستفيق من غفلته لن يجد أمامه من عمل

(١) سورة غافر: الآية ٦٠.

(٢) سورة النساء: الآية ١٢٢.

(٣) سورة التوبة: الآية ١٠٤.

(٤) من دعاء أبي حمزة الثمالي، مفاتيح الجنان.

يمحو به ما ارتكبه سوى التوبة، فهي الطريق المفتوح دائماً، وهي الملاذ الأوّل والأخير في هذه الدنيا وقبل انقطاع العمل، فحينئذ سيتّخذ القرار بالتوبة.

ولكنّ هذا القرار بالتوبة يكون بعد توالي الحلم الإلهيّ، وقد يكون بعد ملل الإنسان من الذنب، وقد يكون بعد تجّرؤٍ على خالقه، ورغم هذا كلّه سيقدم على التوبة عالماً أنّ اللّه الحليم وعد بقبولها ولن يخلف وعده.

ولكنّ التوبة ليست كلمة تقال، لن يقول: يا ربّ اغفر لي وتنتهي المسألة هنا، لا بدّ من أمور كثيرة لتحصل التوبة، وأوّل أمر يمكن لنا أن نسأله هنا: هل كلّ من طلب التوبة يستحقها؟

في غالب الأحيان كلّ التوبات تُقبل بتحقيق شرائطها الّتي سنمرّ عليها بالتفصيل إنْ شاء اللّه تعالى، ولكن على الإنسان أن يلتفت إلى أمر هو غاية في الخطورة، وهو أنّ اللّه تعالى وإن كان أرحم الراحمين، وأنّ رحمته وسعت كلّ شيء، وهذا ما لا يناقش فيه أحد إذ يقول سبحانه وتعالى واصفاً نفسه: ﴿**كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ**﴾ [1]، لكن الإنسان قد يصل لمقام لا يستحقّ فيه الرحمة الإليهة، **فكيف يصل الإنسان لهذه الحالة؟**

الحرمان الأكبر

بل هي الحقيقة المرعبة الّتي لا يحبّ أيٌّ منّا أن يكون أحد أفرادها. إنّ رحمة اللّه تعالى كنور الشمس الساطعة على الأرض، فكلّ ما تخترقه الشمس ينال نصيبه من النور، فأصل نورها ليس بخيلاً ولا يمتنع عن الوصول لأيّ شيء، إلّا أنّ بعض الأماكن المحجوبة بالجدران والأسقف لا تدخلها خيوط النور، ليس لأنّ النور بخيل أو الشمس بخيلة، بل المانع والحاجز هو من منع دخول النور لما تحته.

وكذا رحمة اللّه العميمة الّتي ترسل بأشعتها على كلّ الموجودات إلّا من وضع بينه وبينها حاجباً وحاجزاً، وهذا ما أشارت له الرواية عن أبي بصير قال: «**سمعت أبا عبد**

(١) سورة الأنعام: الآية ١٢.

الله عليه السلام يقول: إذا أذنب الرجل خرج في قلبه نكتة سوداء، فإنّ تاب انمحت وإن زاد زادت حتّى تغلب على قلبه فلا يفلح بعدها أبداً» [١].

فهل يا ترى ما زالت قلوبنا تحتفظ بصفائها؟ هل ما زال زجاجها نظيفاً، ولم تتطبع عليه أصابع المعاصي، هل أنّ مرآة قلوبنا ما زالت تستطيع عكس النور، أم أنّنا جعلنا الذنوب تترك عليها بصماتها لتتراكم وتصبح حاجباً بيننا وبين الرحمة؟

وقفة بين السطور

قال عليه السلام : «**لا يُنْكِرُ يَا إلهِي عَدْلَكَ إنْ عَاقَبْتَهُ، وَلا يَسْتَعْظِمُ عَفْوَكَ إنْ عَفَوْتَ عَنْهُ وَرَحِمْتَهُ؛ لأَنَّكَ الرَّبُّ الْكَرِيمُ الَّذِي لا يَتَعَاظَمُهُ غُفْرَانُ الذَّنْبِ الْعَظِيم**».

هنا اعتراف باستحقاق العقوبة بما اقترفت اليد، وأنّ العقوبة ليس انتقاماً منّي، بل هي عين العدل، فالله تعالى يحبّ العبد المؤمن، حتّى لو كان عاصياً فإنّه لا يبادر لرميه في نار جهنّم، بل كما جاء في الرواية عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: «**قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: قال الله عزّ وجلّ: وعزّتي وجلالي لا أخرج عبداً من الدنيا وأنا أريد أن أرحمه حتّى أستوفي منه كلّ خطيئة عملها، إمّا بسقم في جسده، وإمّا بضيق في رزقه، وإمّا بخوف في دنياه، فإنّ بقيت عليه بقيّة شدّدت عليه عند الموت، وعزّتي وجلالي لا أخرج عبداً من الدنيا وأنا أريد أن أعذّبه حتّى أوّفيه كلَّ حسنة عملها، إمّا بسعة في رزقه، وإمّا بصحّة في جسمه، وإمّا بأمن في دنياه، فإنّ بقيت عليه بقية هوّنت عليه بها الموت»** [٢].

ويقول عليه السلام : «**اللَّهُمَّ فَهَا أَنَا ذَا قَدْ جِئْتُكَ مُطِيعاً لأمْرِكَ فِيمَا أَمَرْتَ بِهِ مِنَ الدُّعَاءِ، مَتَنَجِّزاً وَعْدَكَ فِيمَا وَعَدْتَ بِهِ مِنَ الإجَابَةِ إذْ تَقُولُ ﴿أدْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾**».

ولكن عليه تحقيق شروط التوبة الّتي سيأتي شرحها وتفصيلها في الدروس القادمة إنّ شاء الله تعالى.

---

(١) الكليني، الكافي، دار الكتب الإسلاميّة، طهران، الطبعة الخامسة، ج ٢ ص ٢٧١.

(٢) م.ن. ج ٢ ص ٤٤٤.



المفاهيم الأساس:

١. الوعد الإلهيّ بقبول التوبة وعد يقينيّ وحتميّ وباب التوبة مفتوح دائماً.
٢. على الإنسان أن يقرّر بنفسه دخول باب التوبة.
٣. قد تكون كثرة الذنوب مانعاً من قبول التوبة وحاجباً لنور الرحمة الإلهيّة.
٤. قبول التوبة فضل من اللّه علينا وتكرّم منه، ولو عاملنا بالعدل لهلكنا.



للمطالعة:

جاء في كتاب الإقبال، في باب أعمال شهر ذي القعدة، أنّ رسول الله ﷺ قال لأصحابه في يوم الأحد من شهر ذي القعدة:

«يا أيها الناس !.. من منكم يريد التوبة؟.. قلنا: كلّنا نريد التوبة يا رسول الله، فقال ﷺ: اغتسلوا ... وتوضّأوا .. وصلّوا أربع ركعات، واقرأوا في كلّ ركعة فاتحة الكتاب مرّة، وقل هو الله أحد ثلاث مرات، والمعوذتين مرّة.. ثمّ استغفروا سبعين مرّة، ثمّ اختموا بلا حول ولا قوة إلّا بالله العليّ العظيم ثمّ قولوا: «يا عزيز .. يا غفّار... اغفر لي ذنوبي، وذنوب جميع المؤمنين والمؤمنات، فإنّه لا يغفر الذنوب إلّا أنت.. ثمّ قال ﷺ: ما من عبد من أمّتي فعل هذا إلّا نودي من السماء: يا عبد الله ... استأنف عملك فإنّك مقبول التوبة، مغفور الذنب.. وينادي ملك من تحت العرش: أيّها العبد .. بورك عليك وعلى أهلك وذرّيتك.. وينادي مناد آخر: أيّها العبد .. ترضى خصماؤك يوم القيامة.. وينادي ملك آخر: أيّها العبد ... تموت على الإيمان ولا أسلب منك الدين، ويُفسح في قبرك، وينور فيه.. وينادي مناد آخر: أيّها العبد .. يرضى أبواك وإن كانا ساخطين، وغفر لأبويك ذلك ولذريتك، وأنت في سعة من الرزق في الدنيا والآخرة.. وينادي جبرائيل عليه السلام: أنا الّذي آتيك مع ملك الموت عليه السلام، وآمره أن يرفق بك ولا يخدشك أثر الموت، إنّما تخرج الروح من جسدك سلاً.. قلنا: يا رسول الله ... لو أنّ عبداً يقول في غير الشهر؟ فقال ﷺ: مثل ما وصفت، وإنّما علّمني جبرائيل عليه السلام هذه الكلمات أيام أسري بي». عن الإمام الصادق عليه السلام: **«كان رسول الله ﷺ وسلم يستغفر الله عزّ وجلّ في كلّ يوم سبعين مرّة، ويتوب إلى الله عزّ وجلّ سبعين مرّة**

من غير ذنب.. وكان لا يقوم من مجلس حتّى يستغفر الله عزّ وجلّ خمساً وعشرين مرّة».

وقال أيضاً: «**إذا أكثر العبد من الاستغفار، رُفعت صحيفته وهي تتلألأ**».

وعن الإمام الرضا عليه السلام: «**مثل الاستغفار مثل ورق على شجرة تحرّك فيتناثر، والمستغفر من ذنب ويفعله كالمستهزئ بربّه**».

من كتاب (هكذا تاب التائبون)

6

الثبات على التوبة

وكان من دعائه عليه السلام:

اللَّهُمَّ إنِّي أَتُوبُ إِلَيْكَ فِي مَقَامِي هَذَا مِنْ كَبَائِرِ ذُنُوبِي وَصَغَائِرِهَا، وَبَوَاطِنِ سَيِّئَاتِي وَظَوَاهِرِهَا، وَسَوالِفِ زَلَّاتِي وَحَوَادِثِهَا، تَوْبَةَ مَنْ لا يُحَدِّثُ نَفْسَهُ بِمَعْصِيَةٍ، وَلاَ يُضْمِرُ أَنْ يَعُودَ فِي خَطِيئَةٍ.

تمهيد:

كثيراً ما تتراجع الجيوش عن أراضٍ احتلّتها، وليس من الضرورة أن يكون الانسحاب جُبنــاً، إذ قد يكون انســحاباً تكتيكيّاً، ويكون ذلك تمهيداً لاحتلاله بطريقة أفضــل تقلّ فيها الخسائر.

هذه الحالة تنطبق أيضاً على الإنسان الّذي يعود عن الذنوب بسبب عذاب الضمير، فيتراجع عنها ويتوب، وفي نيّته أن يعود لها.

ومن ثمّ يعود ليرتكب ذنباً قد يكون أعظم من سابقه! فما هو التقييم لمثل هذا النوع من التوبة؟

الندم والثبات حليفان

تقــدّم أنّ على التائب أن يقرّ ويعتــرف بذنبه أمام ربّه لينال بذلك غفران الذنب، إلّا أنّه لو كان يضــمر في نفســه العود، فإنّ ذلك سيثير أســئلة الاستفهام عن معنى التوبة، فلماذا يتوب في المرّة الأولى ما دام ناوياً على إعادة الفعل المحرّم؟

بعض الناس يريد ذلك لكي يتخلّص من وخز الضــمير، والتفكير في العذاب الآتي، فيقــدم علــى التوبة لتخفّفه عنهــا، ومن ثمّ يقدم على ذات المعصــية، ولكن هذا العمل يتضمّن العديد من السلبيات:

١ - انكسار الحاجز عن الحرام

تنكســر الحواجز بين الإنســان والمحرّم، وذلــك أنّ أوّل ما يقدم عليه الإنســان من الذنوب فيما يحذر الاقتراب منه، يلازم الحذر والخوف الشديدان من العواقب.

ثمّ بعد هذا يبدأ الإنسـان بتحطيم الخوف من خلال اعتياده على المكروه، ويصـل لمرحلـة يتجاوز فيها الحدّ إلى الجرأة على الشـبهات الّتـي لا يعرف إن كانت تدخل في حيّز الحرام أو الحلال.

وبعد أن يعتاد على ذلك يصـبح مهيّئاً نفسـياً لاقتحام الحرام، ومثال هذا في حياتنا مشـاركة المرء في مجالس أهل الفسـق والباطل، الّذين أمرنا الله تعالى بعدم الجلوس إليهـم والإعراض عنهم حيـث يقول جلّ وعلا: ﴿**وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُـمْ حَتَّـى يَخُوضُواْ فِي حَدِيـثٍ غَيْـرِهِ**﴾[1]، وكأنّ الله تعالى يقـول: «**إنّ الّذي يكتسبه هؤلاء الخائضـون من الإثم لا يُحمل إلّا على أنفسـهم ولا يتعدّاهم إلى غيرهم، إلّا أن يماثلوهم ويشـاركوهم في العمل أو يرضـوا بعملهم فلا يحاسـب على عمل إلّا عامله، ولكـن نذكّرهـم لعلّهـم يتّقون، فـإنّ الإنسـان إذا حضـر مجلسـهم وإن كان لا يجاريهم فيمـا يخوضـون ولا يرضـى بقلبه بعملهـم، وإن كان لا يعدّ حضـوره عندهم إعانة لهم علـى ظلمهـم، تأييـداً لهم في قولهم، لكن مشـاهدة الخلاف ومعاينة المعصـية تهوِّن أمـر المعصـية عنـد النفس. وتصـغّر الخطيئـة في عين المشـاهد المعايـن. وإذا هان أمرها أوشك أن يقع الإنسان فيها، فإنّ للنفس في كلّ معصية هوى. ومن الواجب على المتّقـي بمـا عنده من التقوى والورع عن محـارم الله أن يجتنب مخالطة أهل التهتّك والاجتراء على الله، كما يجب ذلك على المبتلين بذلك الخائضين في آيات الله؛ لئلّا تهون عليه الجرأة على الله وآياته فيقرّبه ذلك من المعصية فيشرف على الهلكة، ومن يحم حول الحمى أوشك أن يقع فيه**»[2].

٢ – عدم التوفيق للتوبة

إذاً بتسـويف التوبـة من وقت لوقت يحصـل التمـادي الّذي لا يعرف متى سـيتوقّف قطـاره، وقد لا يقـف إلّا عند الموت، وهذا أسـوأ شـيءٍ في هذه القضـيّة، حيث يكون

---

(١) سورة الأنعام: الآية ٦٨.

(٢) الطباطبائي، محمّد حسين، الميزان في تفسير القرآن، منشورات جماعة المدرسين في الحوزة العلمية، قم المقدسة، ج ٧ ص ١٤١.

الخســـران المبين، ولو نطق بالتوبة حينها فليس من المعلوم أن تكون توبته توبة نصوحاً أو عن اعتقاد، كما حصل لفرعون حين تاب عند غرقه وعندما عاين الموت ولعلّ «**عدم قبول توبة فرعون لأنّه تاب حين رأى البأس**»[١].

إذاً أخطـر ما في هذه التوبة بهذه النيّة عدم التوفيق للتوبة لاحقاً، نسـأل الله تعالى أن يعيذنا جميعاً من سوء الخاتمة.

وهناك صنف من الناس حينما يتوب لا يضمر العودة، ولكنّه يخشى أن تتغلّب شهوته عليه مرّة أخرى فيعود للذنب. هذا النوع من الخوف أمر طبيعيّ فالإنسان معرّض دائماً لبلاء الشهوات، والدنيا مقبلة بزينتها دوماً وهي تعرض نفسها في كلّ يوم على المؤمن، وإنّ لحظة ضعف واحدة قد تؤدّي بالمؤمن إلى أن تزلّ قدمه ويغرق في وحلها.

نفاذ البصيرة درع حصينة

أحد أكبر أسباب وقوع الإنسان في المعصية وارتكابه للذنوب هو عدم نفاذ البصيرة، بالإضافة إلى ما تقدّم من عرض الدنيا وشهواتها لنفسها أمامه. ولكنّ ضعف البصيرة لدى الإنسان هو العامل الأكبر في ذلك، فما المراد من نفاذ البصيرة وضعفها؟

يقول الله تعالى: ﴿**أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ**﴾[٢].

عمى القلوب عن الحقّ مثال عن عدم نفاذ البصيرة وضعفها الشديد، بحيث لا يرى فيهــا الإنســان من خلال التأمّل والتدبّــر آيات الله الناطقة في آثاره، وهذا ما أشــار له رســول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيما روي عنه: «**ليس الأعمى من يعمى بصره، إنّما الأعمى من تعمى بصـيرته**»[٣]، وعــن أميــر المؤمنين عليه السلام: «**ليسـت الرؤية مـع الإبصـار، فقد تكذب العيون أهلها، ولا يغشّ العقل من استنصحه**»[٤].

---

(١) النمازي، عليّ، مستدرك سفينة البحار، مؤسّسة النشر الإسلامي، ج ١ ص ٤٩٥.

(٢) سورة الحجّ: الآية ٤٦.

(٣) الريشهري، محمّد، ميزان الحكمة، دار الحديث، الطبعة الأولى، ج ١ ص ٢٦٦.

(٤) ابن ابي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج١٩ ص١٧٣.

فبهذه البصـيرة الّتي تحصـل من خلال الإيمان باللّه تعالى والعبادة له، والإخلاص لـه تتفتّح الآفاق أمام الإنســان، فيرى كثيراً من الحقائق الّتـي لا يراها الكثيرون، يرى الدنيا على حقيقتها عجوزاً قد حفرت على وجهها آثار الزمن الغابر، لا تزداد مع الأيّام إلى قبحاً، ويرى طلّابها مغبونين في ما شـروا به أنفسـهم ﴿**وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِـي الآخِرَةِ مِنْ خَلاَقٍ وَلَبِئْسَ مَـا شَرَوْاْ بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُـونَ * وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُواْ واتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ الله خَيْرٌ لَّوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ**﴾ [(١)].

وجاء في الرواية عن الإمام عليّ عليه السلام: «**أبصـر الناس من أبصـر عيوبه، وأقلع عن ذنوبه**»[(٢)].

فمن يخلصـون للّه تعالى يتّخذون القرار الصائب دوماً وكأنّهم يرون عواقب الأمور، وهـذا مـا كان جليّاً في حركات أهـل البيت عليهم السلام، وفي علمائنا الأبرار لا سـيما الإمام الخمينيّ المقدّس.

فمـا أهـون أن يفقد الإنسـان بصـره فـي الحياة، ويعانـي من جرّاء ذلك ويكتسب الحسـنات في صـبره على البلاء، أمام فقدان البصـيرة الّذي يعمى فيه الإنسـان عن رؤية درب الحقّ، فلا يهتدي لخير، سـلام اللّه عليك يا أبا الحسـن يا عليّ بن أبي طالب إذ تقول: «**فقد البصر أهون من فقدان البصيرة**»[(٣)].

بصائر من ربّكم

لنقف مع أنفسـنا لنتلو هذه الآية الكريمة من كتاب اللّه تعالى: ﴿**قَدْ جَاءكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَاْ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ**﴾[(٤)].

إنّ طريـق رضـى اللّه تعالى واضـح بيّـن لكلّ من أراد الوصـول إليه جـلّ وعلا، وقد أنعـم علينا بكلّ ما ينوّر لنا طريق الحقّ، فوهبنا العقول ﴿**أَفَلَـمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ**

(١) سورة البقرة: الآيتان ١٠٢، ١٠٣.

(٢) الريشهري، محمّد، ميزان الحكمة، دار الحديث، الطبعة الأولى، ج ١ ص ٢٦٦.

(٣) م.ن.

(٤) سورة الأنعام: الآية ١٠٤.

لَهُـمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا﴾ [١]، وأرسـل لنا الأنبيـاء عليهم السلام وخاتمهم النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم، ثمّ الأئمّة الأطهار عليهم السلام، وجعل بين أيدينا كتاباً فيه الهداية لمن تمسّـك به وتحذير ممّا نخـاف منه على آخرتنا، وكلّهم ناطقون بما فيه خيرنا وصـلاحنا، وآخذون بأيدينا إلى مـا فيه سـعادة الدارين، فأيّ نوع مـن الناس نكون حينما ندير ظهورنا بجفاء، ونصـمّ أسـماعنا عن سـماع النداء، ونتّخذ من مقالات أهل الضـلال مبّرراً لما نورد به أنفسنا ديار الشقاء، ونركض وراء لذّات فانية قذرة، تشوبها القذارة وتعقبها الندامة؟

هـل هذا تصـرّف مـن جعله اللّه تعالـى خليفة لـه على الأرض وكرّمه على سـائر الخلق؟!

وهـذا هـذا هو الرّد علـى الآية الكريمة الّتي تتحـدّث عن البصـائر الّتي تركها اللّه لنا؟!

نعـم حينمـا يرى الواحـد منّا الذنب أمامه، وهـو يفكّر بكلّ ما وهبـه اللّه تعالى من النعم وما يسّـره له منّا سـبل الهداية، فيتركها ويرتكب الذنب، سيكون إمّا مستخفّاً بما جاء من السماء، أو رادّاً على اللّه وكتابه، أو شاكّاً في وعيده وعقابه، أجارنا اللّه من كلّ سوء.

(١) سورة الحج: الآية ٤٦.



المفاهيم الأساس:

١. الإقرار والاعتراف لا يكفيان بدون نيّة الثبات.

٢. الحذر من انكسار الحاجز بين الإنسان والمعاصي.

٣. الحذر من عدم التوفيق للتوبة.

٤. البصيرة ونفاذها يبينان للإنسان المؤمن حقائق الأمور.



للمطالعة:

توبة شاب فاسق

جـاء في كتـاب (كيفر كردار أوجزاء الأعمال) أن رابعة العدويّة قالت: كان هنالك شابٌ في غايـة الجمال، وقد استدرجه أصدقاء السوء إلى مهـاوي الفحشاء والرذيلة، حتىّ صار في عداد الفسقة والأشقياء، وأصبح همّه مطاردة النساء وإغواء الفتيات، حتّى بلغ أذاه جميع الناس.

ذهبـت لزيارتـه يوماً فوجدته قـد افترش سجادته وانشغـل بالصلاة، وهو فـي غاية الخشوع والخضوع، ويكثر من البكاء، تعجّبت من وضعه وقلت في نفسي: ما لهذا الفاسق العاصي وهذه العبادة والخشوع والتقوى، وكيف صار عتبة بن علّام إلى هذا الحال؟!..

انتظـرت حتّـى انتهى من صلاته ثمّ قلت له: هذا أنت يا بن علّام؟!.. أنت الّذي كنت غارقاً فـي الشهوة والشراب والمعاصي، كيف أعرضت عن كلّ ذلك وتوجهت إلى الله؟ وكيف تبت ممّا كنت فيه من المعاصي؟..

قـال: أنـت تعلمين أنّني كنت في شبابي كثيـر المعاصي ومولعاً بالنسـاء، وكما تعلمين أنّ أكثر من ألف امرأة في البصرة كنَّ واقعات في شباك غرامي، وأنّني كنت مسرفاً في غروري ذاك وطيش الشباب.

وفـي أحـد الأيّام وقع بصري عندما خرجت من داري على امـرأة لا يظهر منها إلّا عيناها، إذ كانـت مستورة بثيابها.. فوسوس لي الشيطان وأغراني بهـا وصار قلبي وكأنّ ناراً اضطرمت فيه؛ فسرت وراءها لأكلّمها فأعرضت عنّي، وكلّما دنوت منها تجاهلتني.

فاقتربـت منها وقلت: ويحك ألا تعرفينني؟.. أنا عتبة الّـذي يهواني أكثر نساء البصرة، فما لي أكلمك فتعرضين؟..

قالت: ماذا تريد منّي؟.. قلت: ضيّفيني.

قالت: ويحك يارجل!.. كيف عشقتني وتدّعي محبّتي، وأنا ارتدي ثياباً تستر كلّ أعضاء بدني؟..

قلت: عشقت منك هاتين العينين الجميلتين.

قالت: صدقت لقد كنت غافلة عنهما حقاً، إذاً لا تكفّ عنّي وتعال أقضِ حاجتك.. ثمّ إنّها سارت فتبعتها إلى أن دخلت دارها فدخلت وراءها، ولكن لم أجد في دارها أثاثاً ولا متاعاً.. قلت: أليس لك في الدار متاع؟..

قالت: نقلنا متاعنا من هذا الدار.. قلت: إلى أين؟.. قالت: ألم تقرأ في القرآن قوله تعالى: **﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾**[1]

لقد نقلنا كلّ ما لدينا إلى الدار الآخرة وهي دار الخلود، أمّا هذه الدنيا فزائلة.. فاخش ربّك أيّها الرجل وتب من عملك هذا، وإيّاك أن تبيع الجنّة الباقية بالدنيا الفانية، والحور بالنساء.

قلت: دعكِ من هذا الكلام واقضي حاجتي.

نصحتني المرأة كثيراً ولكن لم تجد عندي أذناً صاغية.. فقالت لي: هل عليّ أن أقضي حاجتك إذا لم تدع عنك هذا؟.. قلت: نعم.. رأيتها دخلت غرفة أخرى وتركتني لحالي، وشاهدت عجوزاً جالسة في تلك الغرفة.. نادت تلك البنت: أن ائتوني بماء لأتوضّأ، فجاؤوها بالماء وتوضأت ووقفت تصلّي حتّى منتصف الليل.. وبقيت أفكّر مع نفسي أين أنا؟.. ومن هؤلاء النسوة؟.. ولماذا أطالت عليَّ هكذا؟..

إلى أن سمعت صوتها فجأة تنادي: أحضروا لي قطناً وطبقاً.. فأخذت لها العجوز ما أرادت.. بعد دقائق سمعت العجوز صرخت وقالت: إنا لله وإنا إليه راجعون، ولا حول ولا قوّة إلّا بالله العليّ العظيم.. وثبت مذعوراً فوجدت أنّ الفتاة قد قلعت عينيها بالسكّين ووضعتهما على قطن في طبق، ولما جاءتني العجوز بالطبق وجدت العينين لا زالتا تتحرّكان في الشحمة على القطن.

قالت لي العجوز وهي في غاية الارتياع: هذا ما كنت تعشقه خذه لا بارك الله لك فيه، لقد حيّرتنا حيّرك الله، ووضعت الطبق أمامي فذعرت وجفّ فمي، ولم أعد قادراً على الكلام، فما هذا الّذي فعلته هذه الفتاة؟..

---

(١) سورة القصص: الآية: ٨٣.

قالــت العجوز وهي باكية: كنّا عشر نساء اعتكفنا في هذه الدار لا نبرحها، وكانت هذه الفتاة هي الّتي تشتري لنا ما نحتاج إليه.. إلّا أنّك جلبت علينا الحيرة والألم.. أهذا هو مرادك؟.. خذ هاتيــن العينيــن اللتين عشقتهما. وما إن سمعت كلام العجوز حتّــى أغمي عليَّ ولما استعدت الوعــي بقيت تلــك الليلة غارقاً في التفكيــر، وندمت على ما سلف من أعمالــي، وقلت: الويل لــي لقــد كنت أعصي الله طوال عمري ولم أندم على شيء من ذلــك، إلّا أنّ هذه الفتاة أدّبتني بعملها هذا.. فذهبت إلى داري ووقعت في فراش المرض أربعين يوماً.. فكان ذلك سبباً لندمي وتوبتي.

من كتاب (هكذا تاب التائبون)

7

الإقلاع عن الذنوب

وكان من دعائه عليه السلام:

وَقَدْ قُلْتَ يَا إِلهِي فِي مُحْكَمِ كِتابِكَ إِنَّكَ تَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبادِكَ وَتَعْفُو عَنِ السَّيِّئاتِ وَتُحِبُّ التَّوَّابِينَ، فَاقْبَلْ تَوْبَتِي كَمَا وَعَدْتَ وَاعْفُ عَنْ سَيِّئاتِي كَمَا ضَمِنْتَ، وَأَوْجِبْ لِي مَحَبَّتَكَ كَمَا شَرَطْتَ، وَلَكَ يَا رَبِّ شَرْطِي أَلَّا أَعُودَ فِي مَكْرُوهِكَ، وَضَمَانِي أَلَّا أَرْجِعَ فِي مَذْمُومِكَ، وَعَهْدِي أَنْ أَهْجُرَ جَمِيعَ مَعَاصِيكَ.

تمهيد:

يتحدّث شابٌّ مبتلى بالذنوب ويقول: أعينوني، كيف أترك الذنوب؟ كيف أقدر على ذلك؟ أنا لا أقدر فلو تركتها هل من بديل؟

صرخة من أعماق النفس، صرخة صادقة يصرخها الكثيرون أيضاً من أمثال هذا الشابّ المبتلى، فهل لها من جواب؟

هذا ما سنجيب عنه في هذا الدرس بشكل دقيق سائلين الله تعالى أن يوفّقنا ويعصمنا إنّه خير موفّق ومعين.

المعرفة أساس العمل

إنّ السؤال الّذي سأله الشابّ المبتلى بالذنوب هو سؤال طبيعيّ وصادق جدّاً، فلو كان الشابّ عارفاً بطريقة تركه للذنوب لما اضطرّ إلى هذا التساؤل، وهذا يقودنا لتسليط الضوء على أهميّة المعرفة والثقافة الدينية لدى الإنسان.

فالمعرفة هذه أو الّتي اصطلح عليها بالثقافة في أيّامنا لها الدور الأكبر في بناء شخصيّة الشابّ وقيادته لنفسه، وبغياب الثقافة الدينية لا يأمن الشابّ من الانحراف، وفي الرواية عن رسول الله الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم: «**ما استرذل الله تعالى عبداً إلّا حُرم العلم**»[1].

وقد جاءت الروايات الشريفة لتبيّن لنا بشكل مباشر أنّ من ثمار العلم التقوى وكلّ ما يتبعها من صفات حسنة، فعن أمير المؤمنين عليّ عليه السلام: «**رأس العلم التواضع... ومن ثمراته التقوى، واجتناب الهوى، واتّباع الحقّ، ومجانبة الذنوب، ومودّة الإخوان،**

(١) الريشهري، محمّد، ميزان الحكمة، دار الحديث، الطبعة الأولى، ج ٣ ص ٢٠٦٤.

والاستماع من العلماء والقبول منهم، ومن ثمراته ترك الانتقام عند القدرة، واستقباح مقاربة الباطل، واستحسان متابعة الحقّ، وقول الصدق، والتجافي عن سرور في غفلة، وعن فعل ما يعقب ندامة، والعلم يزيد العاقل عقلاً، ويورث متعلّمه صفات حمد، فيجعل الحليم أميراً، وذا المشورة وزيراً، ويقمع الحرص، ويخلع المكر، ويميت البخل، ويجعل مطلق الفحش مأسوراً، ويعيد السداد قريباً»[1].

هذا على صعيد الصفات النفسيّة والدينيّة، أمّا على الصعيد الأخرويّ، فإنّ مقام العالم وذي المعرفة والثقافة أرفع من مقام المحروم من نعمة العلم، ﴿**أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ**﴾[2].

﴿**يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ**﴾[3].

فلو أنّ ذلك الشابّ المبتلى درس العلم وقرأ كتب تهذيب النفس لما اضطرّ لتلك الصيحة المدويّة، فماذا قال علماء الأخلاق في مسألة ترك الذنوب؟

الرقابة الأخلاقيّة الذاتيّة

١ - المشارطة

المشارطة هي أن يعاهد الواحد منّا ربّه في كلّ يوم على أن يجعل هذا اليوم عيداً، ففي الرواية عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال في بعض الأعياد: «**إنّما هو عيد لمن قبل الله صيامه وشكر قيامه وكلّ يوم لا يعصى الله فيه فهو عيد**»[4]. وواضح أنّ ترك ما يخالف أوامر الله تعالى ليوم واحد أمر يسير للغاية، ويمكن للإنسان بكلّ سهولة أن يلتزم به مع قليل من الإرادة والعزم، وإن اختلفت درجات يسره من شخص

(١) الريشهري، محمّد، ميزان الحكمة، دار الحديث، الطبعة الأولى، ج٣ ص ٢٠٩٠.

(٢) سورة الزمر: الآية: ٩.

(٣) سورة المجادلة: الآية: ١١.

(٤) نهج البلاغة، خطب الإمام عليّ عليه السلام، ج ٤ رقم ٤٢٨.

لآخر إلّا أنّه في النهاية أمر يسير، فاعزم وشارط نفسك وجرّب، وانظر كيف أنّ الأمر سهل يسير، فإنّ اللّه تعالى إذا رأى من العبد سعياً للتقرّب إليه أخذ بيده ويسّر له أمره ﴿فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى﴾[(١)]، ولو صوّر لك الشيطان أنّ الأمر صعب وعسير فاستعذ باللّه منه وقل لنفسك لن أسقط في أوّل اختبار. حاول أن تكون رجلاً ليوم واحد وأخرج الأوهام الباطلة من قلبك، واعلم علم اليقين أنّ اللّه تعالى سيسدّدك إن نويت ذلك.

٢ - المراقبة

بعد المشارطة عليك أن تنتقل إلى «**المراقبة**»، وهي أن تنتبه طوال اليوم إلى عملك، في كلّ صغيرة وكبيرة، بل حتّى كلّ حرف تنطق به حاول أن تفكّر فيه للحظات فقط، ولن تخسر وقتاً كبيراً لو فكّرت لثانيتين قبل القول، وإذا حصل - لا سمح اللّه - حديث لنفسك بأن ترتكب عملاً مخالفاً لأمر اللّه، وهذا أمر متوقّع الحدوث لأنّ الشيطان وجنده لن يدعوك تهزمهم بهذه السهولة، فقل للشيطان: «إنّي اشترطت على نفسي أن لا أقوم في هذا اليوم - وهو يوم واحد - بأيّ عمل يخالف أمر اللّه تعالى، وهو وليّ نعمتي ومالك أمري وإليه مفزعي أستعيذ به منك، فقد أنعم وتلطّف عليَّ بالصحّة والسلامة ونِعَم لا تُحصى فليس من اللائق أن لا أفي بشرط بسيط كهذا». والمراقبة لا تتعارض مع أيٍّ من أعمالك كالكسب والسفر والدراسة، فكن على هذه الحال إلى الليل ريثما يحين وقت المحاسبة[(٢)].

٣- المحاسبة

وأمّا «**المحاسبة**» فهي عندما تغفو العيون في الليل وتنهي كلّ أعمالك اليوميّة لتخلد للراحة، ساعة أو أقلّ منها، ربّما ربع ساعة، لتجري مراجعة صغيرة تحاسب نفسك لترى هل أدّيت ما اشترطت على نفسك مع اللّه، ولم تخن ولي نعمتك في هذه المعاملة

---

(١) سورة الليل: الآية: ٧.

(٢) الأربعون حديثاً للإمام الخميني قدس سره الحديث الأوّل بتلخيص وتصرّف.

الصغيرة؟ وقد رويَ عن أمير المؤمنين عليه السلام: «**حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا ووازنوها قبل أن توازنوا، حاسبوا أنفسكم بأعمالها وطالبوها بأداء المفروض عليها والأخذ من فنائها لبقائها**»[١]، وعنه عليه السلام: «**ما أحقّ الإنسان أن تكون له ساعة لا يشغله شاغل، يحاسب فيها نفسه فينظر فيما اكتسب له وعليها، في ليلها ونهارها**»[٢].

فإذا كنت قد وفيت حقّاً فاشكر الله على هذا التوفيق، وإن شاء الله ييسّر لك سبحانه التقدّم في أمور دنياك وآخرتك، وسيكون عمل الغد أيسر عليك من سابقه، لأنَّ النفس مطواعة لعقل الإنسان كالشمع في يديه.

وإذا حدث - لا سمح الله - في أثناء المحاسبة تهاون وفتور تجاه ما اشترطت على نفسك، فاستغفر الله واطلب العفو منه، واعزم على الوفاء بكلّ شجاعة بالمشارطة غداً، وكن على هذا الحال كي يفتح الله تعالى أمامك أبواب التوفيق والسعادة، ويوصلك إلى الصراط المستقيم للإنسانيّة.

لا تترك الخزّان فارغاً

سيارتك الّتي تستخدمها في حياتك لا تتركها فارغة؛ خوفاً من أن تحتاج إليها في لحظة قد تكون محطّات الوقود فيها مقفلة. وكذا نفسك تحتاج لأن تملأها دوماً بوقودها الخاصّ وهو الموعظة، لأنّها حاجتها الدائمة. هذه الموعظة تجدها في كتب الأخلاق، الإرث الكبير الّذي كلّف علماءنا الأبرار سنين طويلة، املأ خزان قلبك بقليل من هذا الوقود كلّ ليلة ولو لعشر دقائق، تصفّح كتاباً أخلاقياً، لتجد فيه عالماً يحذّرك دوماً من عيوب نفسك ويعظك بذكر الموت وأهواله، ويشير لك إلى الزوايا الّتي يقبع فيها الشيطان متربّصاً للفتك بك.

---

(١) الميرزا النوري، مستدرك الوسائل، مؤسّسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، بيروت، لبنان، ج ١٢ صفحة ١٥٣.

(٢) م.ن.ج ١٢ صفحة ١٥٤.



المفاهيم الأساس:

١. المعرفــة أســاس كلّ الفضــائل، وهــي العامــل الأهــمّ للحمايــة من الذنوب.

٢. يلزم مشارطة النفس ومراقبتها ومحاسبتها في كلّ ليلة كعلاج لترك الذنوب.

٣. الثقافــة الدينيّة أمر في غاية الأهميّة، والمطالعة هي محطّة التغذية للنفس.



للمطالعة:

عاقبة حبّ الدنيا وبغضها

اعلم أنّه لا يبلغ مع العبد عند الموت إلّا صفاء القلب، أعني ظهارته عن أدناس الدنيا وحبّه لله وأنسه بذكره. وصفاء القلب وطهارته لا يحصل إلّا بالكفّ عن شهوات الدنيا، والحبّ لا يحصل إلّا بالمعرفة. والمعرفة لا تحصل إلّا بدوام الفكرة. والأنس لا يحصل إلّا بكثرة ذكر الله والمواظبة عليه. وهذه الصفات الثلاث هي المنجيات المسعدات بعد الموت، وهي الباقيات الصالحات.

أمّا طهارة القلب عن أدناس الدنيا، فهي الجنّة بين العبد وبين عذاب الله، كما ورد في الخبر: «**إنّ أعمال العبد تناضل عنه، فإذا جاء العذاب من قِبَل رجليه جاء قيام الليل يدفع عنه، وإذا جاء من قبل يديه جاءت الصدقة تدفع عنه...**».

وأمّا الحبّ والأنس، فهما يوصلان العبد إلى لذّة المشاهدة واللّقاء. وهذه السعادة تتعجّل عقيب الموت إلى أن يدخل الجنّة، فيصير القبر روضة من رياض الجنّة، وكيف لا يصل صاحب الصفات الثلاث بعد موته غاية البهجة ونهاية اللذّة بمشاهدة جمال الحقّ، ولا يكون القبر عليه روضة من الرياض الخلد، ولم يكن له إلّا محبوب واحد، وكانت العوائق تعوقه عن الأنس بدوام ذكره ومطالعة جماله، وبالموت ارتفعت العوائق وأفلت من السجن وخلّي بينه وبين محبوبه، فقدم عليه مسروراً سالماً من الموانع آمناً من الفراق؟ وكيف لا يكون محبّ الدنيا عند الموت معذّباً ولم يكن له محبوب إلّا الدنيا وقد غُصبت منه وحيل بينه وبينها، وسُدّت عليه طرق الحيلة في الرجوع إليه؟ وليس الموت عدماً، إنّما هو فراق لمحابّ الدنيا وقدوم على الله، فإذن سالك طريق الآخرة هو المواظب على أسباب هذه الصفات الثلاث، وهي: الذكر، والفكر، والعمل الّذي يفطمه عن شهوات الدنيا ويبغّض إليه ملاذها ويقطعه عنها.

(من كتاب محمّد مهدي النراقي، جامع السعادات، الجزء الثاني)

8

تبعات الذنوب

وكان من دعائه عليه السلام:

اللَّهُمَّ إِنَّكَ أَعْلَمُ بِمَا عَمِلْتُ فَاغْفِرْ لِي مَا عَلِمْتَ، وَاصْرِفْنِي بِقُدْرَتِكَ إِلَى مَا أَحْبَبْتَ. اللَّهُمَّ وَعَلَيَّ تَبِعَاتٌ قَدْ حَفِظْتُهُنَّ، وَتَبِعَاتٌ قَدْ نَسِيتُهُنَّ، وَكُلُّهُنَّ بِعَيْنِكَ الَّتِي لاَ تَنَامُ، وَعِلْمِكَ الَّذِي لا يَنْسَى، فَعَوِّضْ مِنْهَا أَهْلَهَا، وَاحْطُطْ عَنِّي وِزْرَهَا، وَخَفِّفْ عَنِّي ثِقْلَهَا، وَاعْصِمْنِي مِنْ أَنْ أُقَارِفَ مِثْلَهَا.

تمهيد:

لا ريب أنّ لكلّ عمل نقوم به أثراً، وهذا قانون الأسباب في الكون. وإنّ أهون تصرّف من الإنسان له أثر. ويختلف الأثر بقدر سببه. وأعمال الإنسان الّتي يُسأل عنها أمام اللّه تعالى لها آثار أيضاً. وهذه الآثار تنقسم إلى قسمين: آثار في الدنيا وآثار في الآخرة، فإذا طالعنا الآيات القرآنيّة الكريمة وجدناها تفصل هذين الأثرين. يقول سبحانه وتعالى في وصف المانعين لذكره في المساجد والساعين في خرابها: **﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا أُوْلَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَا إِلاَّ خَآئِفِينَ لهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾** [١].

ويقول في المرتدّ عن الدين: **﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾** [٢].

وكذلك في الروايات الشريفة، وسنشير إلى بعض هذه الموارد، لنصل بعد ذلك إلى كيفيّة التوبة من الذنوب والتخلّص من تبعاتها الدنيويّة والأخرويّة.

الآثار الدنيويّة للذنوب

قبل الحديث عن الآثار الدينيويّة للذنوب من المناسب أن نشير إلى أمرين هامّين:

١ - إنّ وجود آثار دنيويّة للذنوب لا يعني بتاتاً أنّه لا يوجد أثر أخرويّ، بلّ إنّ بعض الذنوب لشدّتها وشدّة مبغوضيّتها يعجّل اللّه تعالى بها العذاب في الدنيا، ومن ثمّ يكون للعذاب تتمّة في الآخرة، وقد تكون التتمّة الأكبر للعذاب.

(١) سورة البقرة: الآية ١١٤.

(٢) سورة البقرة: الآية ٢١٧.

٢ – إنّ اللّه تعالى بكرمه وعطفه عجّل عقوبة بعض الذنوب في الدنيا لكي لا يؤخذ به المؤمن في الآخرة، وقد أشارت لهذا المعنى روايات عديدة منها ما روي عن الإمام الباقر عليه السلام قال: «**إنّ الله عزّ وجلّ إذا كان من أمره أن يكرم عبداً وله ذنب ابتلاه بالسقم، فإنّ لم يفعل ذلك له ابتلاه بالحاجة، فإنّ لم يفعل به ذلك شدّد عليه الموت ليكافيه بذلك الذنب، قال: وإذا كان من أمره أن يهين عبداً وله عنده حسنة صحّح بدنه، فإنّ لم يفعل به ذلك وسّع عليه في رزقه، فإنّ هو لم يفعل ذلك به هوّن عليه الموت ليكافيه بتلك الحسنة**»(١).

وروي عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «**قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: قال الله عزّ وجلّ: وعزّتي وجلالي لا أُخرج عبداً من الدنيا وأنا أريد أن أرحمه حتّى أستوفي منه كلّ خطيئة عملها، إمّا بسقم في جسده وإمّا بضيق في رزقه وإمّا بخوف في دنياه فإنّ بقيت عليه بقيّة شدّدت عليه عند الموت...**»(٢).

وفي رواية أخرى عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «**قال أمير المؤمنين عليه السلام في قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ﴾(٣): ليس من التواء عرق ولا نكبة حجر ولا عثرة قدم ولا خدش عود إلّا بذنب. ولما يعفو الله أكثر، فمن عجّل الله عقوبة ذنبه في الدنيا فإنّ الله أجلّ وأكرم وأعظم من أن يعود في عقوبته في الآخرة**»(٤).

ومن الذنوب الّتي عجّل اللّه تعالى بها العقوبة في الدنيا:

١ - ترك تأديب الناشئة:

أي الشباب الصاعدين فبتركنا تأديبهم بنهيهم له عن الولوج في ما منع اللّه تعالى عنه نستحقّ بذلك العقوبة المعجلّة، كما في الرواية عن الإمام الصادق عليه السلام: «**أيّما**

(١) المازندراني، مولى محمّد صالح، شرح أصول الكافي، ج ١٠ ص ١٨٩.
(٢) م.ن.
(٣) سورة الشورى: الآية ٣٠.
(٤) المازندراني، مولى محمّد صالح، شرح أصول الكافي، ج ١٠ ص ١٩٠.

ناشئٍ نشأ في قومه ثمّ لم يؤدَّب على معصيته فإنَّ الله عزّ وجلّ أوّل ما يعاقبهم به أن ينقص من أرزاقهم»[١].

٢ – خذلان المؤمن وإذلاله:

وهو من أشدّ العقوبات لأنّه يشمل العقوبة المعجّلة في الدنيا والمؤجّلة للآخرة. ولهجة الأحاديث الشريفة فيه قاسية جدّاً، فقد روي عن الإمام الصادق عليه السلام: «**قال الله عزّ وجلّ: ليأذن بحرب منّي من أذلَّ عبدي المؤمن وليأمنْ غَضَبِي مَن أكرَم عبدي المؤمن**»[٢].

وأما بخصوص الخذلان فقد روي عن الإمام الصادق عليه السلام أيضاً: «**ما من مؤمن يخذل مؤمناً أخاه وهو يقدر على نصرته إلّا خذله الله في الدنيا والآخرة**»[٣].

٣ – عبادة الطاغوت:

وليس المقصود بالعبادة هنا الصلاة والصوم لهم، بل مجرّد الركون إليهم والرضا بأفعالهم المنكرة، أو السكوت عنها. وترك فريضة النهي عن المنكر يعجّل عقوبة الله تعالى، وهي من العقوبات الشديدة الّتي أهلك بها الله تعالى أمماً خلت كما روي عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «**بينا عيسى بن مريم عليه السلام في سياحته إذ مرّ بقرية فوجد أهلها موتى في الطريق والدور فقال: إنّ هؤلاء ماتوا بسخطة ولو ماتوا بغيرها تدافنوا، قال: فقال أصحابه: وددنا تعرّفنا قصّتهم، فقيل له: نادهم يا روح الله، فقال: يا أهل القرية فأجابه مجيب منهم: لبّيك يا روح الله قال: ما حالكم وما قصّتكم؟ قال: أصبحنا في عافية وبتنا في الهاوية، فقال: ما الهاوية؟ فقال: بحار من نار فيها جبال من النار، قال: وما بلغ بكم ما أرى؟ قال: حبّ الدنيا وعبادة الطاغوت قال:**

(١) الشيخ الصدوق، ثواب الأعمال، ص ٢٢٣.

(٢) م.ن. ص ٢٣٨.

(٣) م.ن. ص ٢٣٨.

وما بلغ بكم من حبّ الدنيا؟ قال كحبِّ الصبي لأمّه إذا أقبلت فرح وإذا أدبرت حزن، قال: وما بلغ من عبادتكم الطاغوت؟ قال: كانوا إذا أمرونا أطعناهم...»(١).

الآثار الأخرويّة للذنوب

وتكون الآثار الأخرويّة إمّا بحرمان الشفاعة أو العذاب في النار، وشدّته بشكل خاصّ لبعض الذنوب العظيمة، وسنشير إلى بعضها من باب التذكّر والموعظة:

١ - إشاعة الفاحشة:

بين المؤمنين بذكر ما يشينهم من أمور أمر الله تعالى بالستر عنها، سواء حصلت هذه الأمور فعلاً أم لم تحصل، فذلك بهتان وافتراء له عقابه الآخر، فعن أبي الحسن موسى بن جعفر الكاظم عليه السلام قال: «**قلت له جعلت فداك الرجل من إخواني بلغني عنه الشيء الّذي أكرهه فأسأله عنه فينكر ذلك، وقد أخبرني عنه قوم ثقات، فقال لي: يا محمّد كذِّب سمعك وبصرك عن أخيك وإن شهد عندك خمسون قسَّامةً، وقال لك قولاً فصدّقه وكذّبهم ولا تذيعنَّ عليه شيئاً تشينه به وتهدم به مروءته، فتكون من الذين قال الله عزّ وجلّ: ﴿الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾**»(٢)(٣).

٢ - السؤال بغير حاجة:

وما دام المرء مكتفياً بالرزق الواصل إليه فلماذا سؤال الناس والطلب منهم؟ فإنّ ذلك:

أوّلاً: إراقة لماء الوجه، وتضييعٌ لعزَّة النفس، فعن أمير المؤمنين عليه السلام: «**المسألة طوق المذلّة تسلب العزيز عزّه والحسيب حسبه**»(٤).

ثانياً: تسوّلٌ مضمر وملبس بلباس الخدمة.

---

(١) الشيخ الصدوق، ثواب الأعمال، ص ٢٥٤.

(٢) سورة النور: الآية ١٩.

(٣) الشيخ الصدوق، ثواب الأعمال، ص ٢٤٧.

(٤) الريشهري، محمّد، ميزان الحكمة، دار الحديث، الطبعة الأولى، ج ٢ ص ١٢٢٢.

ثالثاً: ليس من صفات الشيعة المؤمنين الّذين قال فيهم الإمام الصادق عليه السلام: «**شيعتنا من لا يسأل الناس ولو مات جوعاً**»[1].

رابعاً: التعرّض لسائر المعاصي الّتي قد تستتبع هذا التصرّف وأوّله الكذب الّذي له من الآثار الأخرويّة ما يروّع له قلب الإنسان ويكفي في ذمّه قول الله تعالى: ﴿**إِنَّ اللهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ**﴾[2].

فمن استعمل المعاصي في سبيل الطلب بدون حاجة يكون مصداقاً لما روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**ما من عبد يسأل من غير حاجة فيموت حتّى يحوجه الله إليها ويثبت له بها النار**»[3].

هل تمحى آثار الذنوب؟

بعد أن عرفنا هذا القدر من العقوبات الدنيويّة والأخرويّة، فهل من سبيل للخلاص من هذه التبعات والآثار؟

نعم التوبة النصوح تمحو الآثار، ولكنّ ذلك يحتاج لتفصيل سنفصّله في الدرس الآتي إن شاء الله تعالى.

---

(١) الريشهري، محمّد، ميزان الحكمة، دار الحديث، الطبعة الأولى، ج ٢ ص ١٢٢٢.

(٢) سورة الزمر:الآية٣.

(٣) الشيخ الصدوق، ثواب الأعمال، ص ٢٧٦.



المفاهيم الأساس:

١. للذنوب تبعات دنيويّة وأخرويّة.

٢. من الذنوب الّتي لها تبعات دنيويّة: ترك تأديب الناشئة، خذلان المؤمن وإذلاله، عبادة الطاغوت.

٣. من الذنوب الّتي لها عقوبات أخرويّة إشاعة الفاحشة، السؤال لغير حاجة.



للمطالعة:

دخـل معاذ بن جبـل على الرسول ﷺ باكياً، فسلّم فردّ عليه السـلام ثمّ قال: ما يبكيك يا معـاذ؟!.. فقال: يا رسـول الله، إنّ بالباب شابّاً طري الجسد، نقـيّ اللون، حسن الصورة، يبكي على شبابه بكاء الثكلى على ولدها يريد الدخول عليك.. فقال النبيّ ﷺ: أدخل عليَّ الشاب يـا معـاذ... فأدخله عليه فسلّم فردّ عليه السلام، ثمّ قال: ما يبكيك يا شابّ؟.. قال: وكيف لا أبكي، وقـد ركبـت ذنوباً إن أخذني الله عزّ وجلّ ببعضها أدخلني نـار جهنّم؟.. ولا أراني إلّا سيأخذني بها ولا يغفر لي أبداً.

فقال رسول الله ﷺ: هل أشركت بالله شيئاً؟..

قال: أعوذ بالله أن أشرك بربّي شيئاً.

قال: أقتلت النفس الّتي حرّم الله؟.. قال: لا.

فقال النبيّ ﷺ: يغفر الله ذنوبك، وإن كانت مثل الجبال الرواسي.

فقال الشابّ: فإنّها أعظم من الجبال الرواسي.

فقـال النبيّ ﷺ: يغفر الله لـك ذنوبك، وإن كانت مثـل الأرضين السبـع وبحارها ورمالها وأشجارها وما فيها من الخلق.

قال: فإنّها أعظم من الأرضين السبع وبحارها ورمالها وأشجارها وما فيها من الخلق.

فقال النبيّ ﷺ: يغفر الله ذنوبك، وإن كانت مثل السماوات ونجومها، ومثل العرش والكرسيّ.

قال: فإنّها أعظم من ذلك.

قال: فنظر إليه النبيّ ﷺ كهيئة الغضبان ثمّ قال: ويحك يا شابّ!.. ذنوبك أعظم أم ربّك؟..

فخـرّ الشابّ لوجهه وهو يقول: سبحان ربّي!.. ما شيء أعظم من ربّي، ربّي أعظم يا نبّي الله من كلّ عظيم.

فقال النبيّ ﷺ: فهل يغفر الذنب العظيم إلّا الربّ العظيم؟..

قال الشابّ: لا والله يا رسول الله.

ثـمّ سكت الشـابّ.. فقال له النبيّ ﷺ: ويحـك يا شابّ!.. ألا تخبرنـي بذنب واحد من

ذنوبك ؟..

قـال: بلى أخبرك؛ إنّي كنت أنبش القبور سبع سنين، أُخرج الأموات، أنزع الأكفان، فماتت جارية من بعض بنات الأنصار، فلمّا حُملت إلى قبرها ودُفنت، وانصرف عنها أهلها، وجنَّ عليهم الليل، أتيت قبرها فنبشتها ثمّ استخرجتها ونزعت ما كان عليها من أكفانها، وتركتها متجرّدة على شفير قبرها، ومضيـت منصرفاً، فأتاني الشيطان فأقبل يُزيّنها لي، ويقول: أما ترى بطنها وبياضها، أمـا تـرى وركيها؟.. فلم يزل يقول لـي هذا حتّى رجعت إليها، ولم أملـك نفسي حتّى جامعتها وتركتهـا مكانها.. فإذا بصوت من ورائي يقول: يا شابّ ويلك من ديّان يوم الدين !.. يوم يقفني وإيّاك كما تركتني عريانة في عسكر الموتى، ونزعتني من حفرتي وسلبتني أكفاني، وتركتني أقوم جنبة إلى حسابي، فويل لشبابك من النار !.. فما أظنّ أنّي أشمّ ريح الجنّة أبداً. فما ترى يا رسول الله؟.. فقال النبيّ ﷺ: تنحّ عنّي يا فاسق، إنّي أخاف أن أحترق بنارك، فما أقربك من النار !..

ثـمّ لم يزل ﷺ يشير إليه ويقول حتّى أمعن من بين يديه.. فذهب فأتى المدينة فتزوّد منها، ثمّ أتى بعض جبالها فتعبّد فيها، ولبس مسحاً، وغلَّ يديه جميعاً إلى عنقه، ونادى:

يا ربّ !.. هذا عبدك بهلول بين يديك مغلول.

يا ربّ !.. أنت الّذي تعرفني، وزلّ مني ما تعلم يا سيّدي !..

يا ربّ !.. أصبحت من النادمين.

ولـم يزل على هذا الحال يدعو ورفع يديه إلى السماء وقال: اللهمّ إن كنت استجبت دعائي وغفـرت خطيئتـي، فأوح إلى نبيّـك، وإن لم تستجـب دعائي ولم تغفر لـي خطيئتي، وازددت عقوبتـي، فعجّل بنار تحرقني عقوبة في الدنيا تهلكني، وخلّصني من فضيحة يوم القيامة.. فأنزل الله تبـارك وتعالى على نبيّه: ﴿ **وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَـةً أَوْ ظَلَمُواْ أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُواْ اللهَ فَاسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِـمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُـوبَ إِلاَّ اللهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَى مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ** ﴾. خرج رسول الله ﷺ وقـال لأصحابـه: من يدلّني على ذلك الشـابّ؟.. فقال معاذ: بلغنا يا رسـول الله أنّه في موضـع كذا وكـذا.. فمضى رسول الله بأصحابه حتّى انتهوا إليه، فـإذا به يبكي وقد اسودّ وجهه وتساقطت أشفار عينيه.. فدنا رسول الله ﷺ فأطلق يديه من عنقه، وقال: يا بهلول !.. أبشر فإنّك عتيق الله من النار، ثمّ قال لأصحابه: هكذا تداركوا الذنوب كما تداركها بهلول.

من كتاب (هكذا تاب التائبون)

9

كيف نزيل آثار الذنوب؟

وكان من دعائه عليه السلام:

اللَّهُمَّ أَيُّما عَبْدٍ تَابَ إِلَيْكَ وَهُوَ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ فَاسِخٌ لِتَوْبَتِهِ وَعَائِدٌ فِي ذَنْبِهِ وَخَطِيئَتِهِ فَإِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَكُونَ كَذلِكَ، فَاجْعَلْ تَوْبَتِي هٰذِهِ تَوْبَةً لا أَحْتَاجُ بَعْدَهَا إِلَى تَوْبَةٍ، تَوْبَةً مُوجِبَةً لِمَحْوِ مَا سَلَفَ، وَالسَّلامَةِ فِيمَا بَقِيَ.

تمهيد:

أن يعود السارق لمن سُرق ماله ليقول له سامحني، ويدير ظهره ولا يُرجع له ما سرق منه تصــرّف لا يقبله أيّ منّا، بل يناقض كلّ الأعراف، فعلى الســارق إن ندم أن يعيد ما سرق.

وكذا المســألة في التوبة، فصــحيح أنّ التوبة كما رُوي عن رســول اللّه ﷺ: «**التوبة تجـبّ مـا قبلهـا**»[1]، وعنه ﷺ: «**التائب من الذنـب كمن لا ذنب لـه**»[2]، إلّا أنّ بعض الذنوب ليس من هذا القبيل، فليس قول المرء (أســتغفر اللّه تعالى) ماحٍ لكلّ الذنوب، فكيف نعالج هذه المسألة؟

الذنوب نوعان

١ – الذنــوب الّتي هي من حقّ اللّه تعالى أن يســتغفره المرء عليها، ومثال هذا ترك الواجبات العباديّة، كالصــلاة والصــوم، فهذه الذنوب لا يســتطيع أيّ من العباد أن يطالب العاصــي بها، لأنّها للّه تعالى. هذا النــوع من الذنوب يكتفي فيه العبد بالأمور التالية:

أ – الاعتراف بالذنب.

ب- الندم.

ج – العزم على عدم العودة وهو الثبات الّذي مرَّ معنا.

د – قضاء ما فات من الصلوات والصوم.

---

(١) الميرزا النوري، مستدرك الوسائل، مؤسّسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، بيروت، لبنان، ج١٢ ص١٢٩.

(٢) الريشهري، محمّد، ميزان الحكمة، دار الحديث، الطبعة الأولى، الحديث ٢١١٧.

والله تعالــى حينها إن علم صــدق التائب في توبته يقبلها منــه برحمته، فعن الإمام عليّ عليه السلام: «**التوبة تستنزل الرحمة**»[١].

٢ - الذنـوب الّتي تتضـمّن حقّ الله وحـقّ الناس، أمّا حقّ الله تعالى فقـد تقدّم، وأمّا حقّ النـاسـ فعلى التائب أن يصـلح مـا بينه وبينهم. ومثـال الذنوب المشـتركة الغيبة، فهي من الكبائر وفي نفس الوقت تتعلّق بذِمم النـاس وكرامتهم، وكذا السـرقة، وإيذاء المؤمن، ومال السـحت الّذي قال الفقهاء إنّه بحكم مجهول المالك، فعليه أن يرجعه للوليّ الفقيه للتصرّف فيـه، فقد جاء فـي الرواية عن عليّ بن أبي حمزة قال: «**كان لي صـديق مـن كتّاب بني أميّة فقال لي: استأذن لي عند أبي عبد الله عليه السلام فاستأذنت له عليه فأذن له فلمّا أن دخل سلّم وجلس ثـمّ قـال: جعلت فـداك إنّي كنت في ديـوان هؤلاء القوم فأصـبت مـن دنياهم مالاً كثيراً وأغمضت في مطالبه. فقال أبو عبد الله عليه السلام: لولا أنّ بني أميّة وجدوا من يكتب لهم ويجبي لهم الفيء ويقاتل عنهم ويشهد جماعتهم لما سلبونا حقّنا، ولو تركهم الناس وما في أيديهم ما وجدوا شيئاً إلّا ما وقع في أيديهم، قال: فقال الفتى: جعلت فداك فهل لي مخرج منه؟ قال: إن قلت لك تفعل؟ قال: أفعل، قال له: فاخرج من جميع ما اكتسبت في ديوانهم فمن عرفت منهم رددت عليه ماله ومن لم تعرف تصدّقت به. وأنا أضمن لك على الله عزّ وجلّ الجنَّة، قال: فأطرق الفتى رأسـه طويلاً ثمّ قال: قد فعلت جعلت فداك، قال ابن أبي حمزة: فرجع الفتى معنا إلى الكوفة فما ترك شيئاً على وجه الأرض إلّا خرج منـه حتّـى ثيابـه الّتي كانت على بدنه، قال: فقسـمت له قسـمة واشـترينا لـه ثياباً وبعثنا إليـه بنفقة قال: فما أتى عليه إلّا أشـهر قلائـل حتّى مرض فكنّا نعوده قال: فدخلت عليه يوماً وهو في السـوق قال: ففتح عينيه ثمّ قال لي: يا عليّ وفى لي والله صـاحبك، قال ثمّ مات فتولينا أمره فخرجت حتّى دخلت على أبي عبد الله عليه السلام فلمّا نظر إليّ قال: يا عليّ وفينا والله لصاحبك، قال: فقلت: صدقت جعلت فداك هكذا والله قال لي عند موته**»[٢].

(١) الميرزا النوري، مستدرك الوسائل، مؤسّسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، بيروت، لبنان، ج١٢ ص١٢٩.

(٢) الكليني، الكافي، دار الكتب الإسلاميّة، طهران، الطبعة الخامسة، ج٥ ص١٠٦.

نوعا التوبة

وكما أنّ للاعتذار من الصديق أساليب تتناسب مع الخطأ الّذي ارتُكب بحقّه، فإنّ الأمر كذلك مع اللّه تعالى. لهذا قُسمت التوبة إلى:

١ – توبة العلن:

وهي الّتي تستدعي أن يعلن الإنسان توبته أمام الخلائق جميعاً، وتكون من الذنوب الّتي جاهر بها في حياته كشرب الخمر علناً والعياذ باللّه تعالى .

٢ – توبة السرّ:

من الذنوب الّتي فعلها الإنسان بينه وبين ربّه، كالنظر الحرام، وظنّ السوء، وسائر المحرّمات، وقد جاء في الحديث عن رسول اللّه الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم: أحدث لكلّ ذنبٍ توبة: «**السرّ بالسرّ والعلانية بالعلانية**»[1] .

أيّها التائب العائد

إنّك برجوعك إلى اللّه تعالى مشرف على مرحلة جديدة، ومستعدّ للدخول في مصافّ أهل الورع. ولكي تزداد حماستك وأنت مسرعٌ إليهم أنصت لما قيل في الورع: «الورع والتقوى عن الحرام أعظم المنجيات، وعمدة ما ينال به إلى السعادات ورفع الدرجات. قال رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم: «**خير دينكم الورع**». وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «**من لقي الله سبحانه ورعاً، أعطاه الله ثواب الإسلام كلّه**». وفي بعض الكتب السماوية: «**وأمّا الورعون، فإنّي أستحيي أن أحاسبهم**». وقال الباقر عليه السلام: «**إنّ أشدّ العبادة الورع**». وقال عليه السلام: «**ما شيعتنا إلّا من اتّقى الله وأطاعه، فاتّقوا الله وأعملوا لما عند الله. ليس بين الله وبين أحد قرابة. أحبّ العباد إلى الله تعالى وأكرمهم عليه أبقاهم وأعملهم بطاعته**». وقال الصادق عليه السلام: «**أوصيك بتقوى الله والورع والاجتهاد، واعلم أنّه لا ينفع اجتهاد لا ورع فيه**».

---

(١) المجلسي، محمّد باقر، بحار الأنوار، مؤسّسة الوفاء، الطبعة الثانية المصححة، ج ٧٧ ص ١٣٧.

وقال: «**اتّقوا الله وصونوا دينكم بالورع**». وقال عليه السلام: «**عليكم بالورع، فإنّه لا يُنال ما عند الله إلّا بالورع**». وقال عليه السلام: «**إنّ الله ضمن لمن اتّقاه أن يحوّله عمّا يكره إلى ما يحبّ، ويرزقه من حيث لا يحتسب**». وقال عليه السلام: «**إنّ قليل العمل مع التقوى خير من كثير بلا تقوى**». وقال عليه السلام: «**ما نقل الله عبداً من ذلّ المعاصي إلى عزّ التقوى، إلّا أغناه من غير مال، وأعزّه من غير عشيرة، وآنسه من غير بشر**». وقال عليه السلام: «**إنّما أصحابي من اشتدّ ورعه، وعمل لخالقه، ورجا ثوابه: هؤلاء أصحابي**». وقال عليه السلام: «**ألا وإنّ من أتباع أمرنا وإرادته الورع، فتزيّنوا به يرحمكم الله، وكيدوا أعداءنا به ينعشكم الله**». وقال عليه السلام: «**أعينونا بالورع، قال من لقي الله تعالى منكم بالورع، كان له عند الله فرجاً. إنّ الله عزّ وجلّ يقول: ﴿وَمَن يُطِعِ اللهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاء وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾**[1]»[2].

أفلا يجدر بنا الحماس للدخول في عداد أهل الورع؟!

---

(١) سورة النساء: الآية ٦٩.

(٢) محمّد مهدي النراقي، جامع السعادات، ج ٢ ص ١٣٥.



المفاهيم الأساس:

١. الذنوب نوعان نوع فيه حقّ اللّه تعالى، ونوع فيه حقّ اللّه وحقّ الناس.

٢. لكلّ نوع من الذنوب طريقته الخاصّة.

٣. هناك نوعان من سورة التوبة: الآية توبة السرّ وتوبة العلن.

٤. بعد محو آثار الذنوب والعزم على عدم العود يستعدّ الإنسان ليكون في مصافّ أهل الورع.



للمطالعة:

نقل نجيب الدين، وكان من أكابر علماء عصره، يقول: كنت ذات ليلة في مقبرة، فرأيت أربعة أشخاص قادمين يحملون جنازة.. فتقدّمت إليهم وأنكرت عليهم جلب الجنازة في هذا الوقت من اللّيل، وقلت: يبدو لي من فعلكم أنكم قتلتم إنساناً وتريدون دفنه في منتصف اللّيل، لكي لا يطّلع أحد على أسراركم.

قالوا: لا تسئ الظنّ يا رجل، لأنّ أمّ الفتى معنا. فتقدّمت إليَّ عجوز كانت معهم، سألتها: لماذا جئت بابنك إلى المقبرة في منتصف الليل؟..

قالت: كان ابني فاعلاً للمعاصي، وقبل أن يموت أوصى بعدّة وصايا، منها: إذا متّ ضعي في رقبتي حبلاً، واسحبيني إلى الدار وقولي: هذا عبدك العاصي الهارب وقع في قبضة الموت، وقد أحكمت وثاقه وجئتك به، فارحمه.. وأوصى إذا مات أن أدفنه ليلاً، لكي لا يرى جنازته أحد ويتذكّر معاصيه فيتعذّب.. وثالثاً: أن تدفنينني بنفسك وتضعيني في لحدي، لعلّ الله إذا رأى شيبك يرأف بي ويغفر لي.. صحيح أنّني تبت وندمت على أفعالي ولكن عليك تنفيذ هذه الوصايا.

ولما مات وضعت حبلاً في رقبته وسحبته، وبغتة سمعت هاتفاً يقول: ألا إنّ أولياء الله هم الفائزون لا تفعلي هذا بعبدي العاصي، فإنّا نعلم ما نصنع به.

فرحت لقبول توبته وجئت به إلى المقبرة. وطلبت منها أن تسمح لي بدفنه، فوافقت، وما إن وضعته في قبره ولحدته حتّى سمعت منادياً يقول: «**ألا إن أولياء الله هم الفائزون**».

ففهمت أنّ توبة العاصي تُقبل، وأنّ الله لا يرضى إهانة العاصي التائب.

قال الشاعر:

يا ليت شعري ما ادّخرتَ ... ليوم بؤسك وافتقارك

فلتنزلنّ بمنزل ... تحتاج فيه إلى ادّخارك

أفنيتَ عمرك باغترارك ومناك فيه بانتظارك
ونسيتَ ما لابدَّ منه وكان أولى بادّكارك
ولو اعتبرت بما ترى لكفاك علماً باعتبارك
لك ساعة تأتيك من ساعات ليلك أو نهارك
فتصير محتضراً بها فتهيَّ من قبلِ احتضارك
من قبل أن تُقلى وتُقصى ثمّ تخرج من ديارك
من قبل أن يتثاقل الزوّار عنك وعن مزارك

من كتاب (هكذا تاب التائبون)

10

الشفاعة والتوبة

وكان من دعائه عليه السلام:

اللَّهُمَّ لاَ خَفِيرَ لِي مِنْكَ فَلْيَخْفُرْنِي عِزُّكَ، وَلا شَفِيعَ لِي إِلَيْكَ فَلْيَشْفَعْ لِي فَضْلُكَ، وَقَدْ أَوْجَلَتْنِي خَطَايَايَ فَلْيُؤْمِنِّي عَفْوُكَ، فَمَا كُلُّ مَا نَطَقْتُ بِهِ عَنْ جَهْلٍ مِنِّي بِسُوءِ أَثَرِي، وَلاَ نِسْيَانٍ لِمَا سَبَقَ مِنْ ذَمِيمِ فِعْلِي، وَلكِنْ لِتَسْمَعَ سَمَاؤُكَ وَمَنْ فِيهَا، وَأَرْضُكَ وَمَنْ عَلَيْهَا مَا أَظْهَرْتُ لَكَ مِنَ النَّدَمِ، وَلَجَأْتُ إِلَيْكَ فِيهِ مِنَ التَّوْبَةِ،فَلَعَلَّ بَعْضَهُمْ بِرَحْمَتِكَ يَرْحَمُنِي لِسُوءِ مَوْقِفِي، أَوْ تُدْرِكُهُ الرِّقَّةُ عَلَيَّ لِسُوءِ حَالِي فَيَنَالَنِي مِنْهُ بِدَعْوَةٍ أَسْمَعُ لَدَيْكَ مِنْ دُعَائِي، أَوْ شَفَاعَةٍ أَوْكَدُ عِنْدَكَ مِنْ شَفَاعَتِي تَكُونُ بِهَا نَجَاتِي مِنْ غَضَبِكَ وَفَوْزَتِي بِرِضَاكَ.

تمهيد:

يقول اللّه تعالى في محكم آياته: ﴿**إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ**﴾[1].

ويقول في آية أخرى ﴿**يَوْمَئِذٍ لا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً**﴾[2]

الشفاعة كلمة وإن لم تُستعمل في مفردات حياتنا اليوميّة، إلّا أنّها تُستعمل بعبارات أخرى، وتُمارس عمليّاً، يسمّيها بعضهم الواسطة، والآخر الوسيط، هي توسّط بين طرفين إمّا لحلّ خلاف أو قبول في عمل، أو تيسير أمر.

والشفاعة فيما نحن في صدده هي أن يكون الرسول وأهل البيت عليهم السلام ومن يحقّ لهم الشفاعة بإذن اللّه تعالى وسطاء بيننا وبين اللّه تعالى، فبمنزلتهم لديه وقربهم منه يُنجح اللّه طلبتنا ويشفع لنا ما استغفرنا منه.

وفي دعاء التوبة فقرات تشير إلى هذا المعنى «**وَلا شَفِيعَ لِيْ إِلَيْكَ فَلْيَشْفَعْ لِي فَضْلُكَ**»، «**أَوْ شَفَاعَة أَوْكَدُ عِنْدَكَ مِنْ شَفَاعَتِي تَكُونُ بِهَا نَجَاتِي مِنْ غَضَبِكَ وَفَوْزَتِي بِرضَاكَ**».

فما الرابط بين الشفاعة والتوبة؟ وما معنى الشفاعة؟ هذا ما سنتحدّث عنه في هذا الدرس.

---

(١) سورة يونس: الآية: ٣.

(٢) سورة طه: الآية: ١٠٩.

ما المقصود بالشفاعة؟

الشفاعة هي توسّط بين العبد والله من خلال الأنبياء والشفعاء الذين أذن الله تعالى لهم بمقدار من الشفاعة. وقد أقرّتها الشريعة الإسلاميّة في كتاب الله تعالى بما مرّ من آيات، كما أقرّتها الروايات الكثيرة جدّاً منها ما روي عن رسول الله الأكرم ﷺ: «**لأشفعنّ يوم القيامة لمن كان في قلبه جناح بعوضة إيمان**»[1].

وعنه في رواية أخرى: «**يشفع الأنبياء في كلّ من كان يشهد أن لا إله إلّا الله مخلصاً**»[2].

ويوم القيامة تشفع الأنبياء عليهم السلام لمن آمن بهم فيكفّر عن سيّئاتهم، وأما أتباع رسول الله ﷺ فحينما يصل إليهم الدور يشفع لمن كان منهم أهلاً لذلك. وذلك المقام يسمّى بالمقام المحمود كما جاء في الرواية عن الرسول الأكرم ﷺ: «**إنّ الناس يصيرون يوم القيامة جثى، كلّ أمّة تتبع نبّيها، يقولون: يا فلان، اشفع، يا فلان، اشفع، حتّى تنتهي الشفاعة إلى محمّد، فذلك يوم يبعثه الله المقام المحمود**»[3].

بين الشفاعة والتوسّل

يشترك معنى الشفاعة بالتوسّل فيما يختصّ بالتوبة، فبالتشفّع والتوسّل إلى الله تعالى بنبيّه الأكرم ﷺ وأهل بيته عليهم السلام يحمل الدعاء رصيداً كبيراً. وهذا ما حاول تعليمنا إياه أهل البيت في الكثير من أدعيتهم من خلال التشفّع برسول الله وأهل بيته عليهم صلوات الله جميعاً. وفي دعاء التوبة الّذي بين أيدينا فقرتان تشيران إلى معنى الشفاعة والتوسّل.

أما الفقرة الأولى: «**فَلَعَلَّ بَعْضَهُمْ بِرَحْمَتِكَ يَرْحَمُنِي لِسُوءِ مَوْقِفِي، أَوْ تُدْرِكُهُ الرِّقَّةُ عَلَيَّ لِسُوءِ حَالِي فَيَنَالَنِي مِنْهُ بِدَعْوَةٍ أَسْمَعُ لَدَيْكَ مِنْ دُعَائِي، أَوْ شَفَاعَةٍ أَوْكَدُ عِنْدَكَ مِنْ شَفَاعَتِي تَكُونُ بِهَا نَجَاتِي مِنْ غَضَبِكَ وَفَوْزَتِي بِرِضَاكَ**». فتشير بشكل واضح إلى هذا المعنى، وكأنّ العبد يقول لربّه إذا لم يكن لساني الّذي لهج بالمعاصي أهلاً

---

(١) الريشهري، محمّد، ميزان الحكمة، دار الحديث، الطبعة الأولى، ج ٢ ص ١٤٧١.

(٢) م.ن.

(٣) المتقي الهندي، الوفاة: ٩٧٥، كنز العمال، الناشر: مؤسّسة الرسالة، بيروت، لبنان، ج ١٤ ص ٣٩.

لخطابـك وطلب التوبة منك، وكانت أعمالي حجبت نور رحمتك وعفوك عن أن ينالني، فإنّي سأعلن توبتي على أهل السماوات والأرض، ليستمعوا إلى ندمي وإقراري وتوبتي، فلعلّ بعضهم يرقّ له حالي، فيدعو الله لي بلسان لم يعصك به، أو كان ذا مكان وشأن لديك فينالني العفو ببركة دعائه، وما هذا إلّا لأنّ دعاء الرسول دعاء مستجاب، ودعوته مقبولة، واستغاثته مستجابة، لأنّه نابع من نفس طاهرة مؤمنة راضية مرضيّة.

إنّ التوسّل بدعاء الإنسان الأمثل كان رائجاً في الرسالات السابقة، فنرى أنّ أبناء يعقوب بعدما كُشِفَ أمرهم وبان ظلمهم توسّلوا بدعاء أبيهم النبيّ وقالوا له: ﴿**قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ**﴾[١] .

وقد كان هذا في عهد النبيّ ﷺ، فعن عثمان بن حنيف أنّه قال: «**إنّ رجلاً ضريراً أتى النبيّ ﷺ فقال: أُدعُ الله أن يعافيني فقال ﷺ: إن شئتَ دعوتُ وإن شئتَ صبرتَ وهو خير. قال: فادعه، قال: فأمره أن يتوضّأ فيُحسن وضوءه ويصلّي ركعتين ويدعو بهذا الدعاء: «اللّهمّ إنّي أسألك وأتوجّه إليك بنبيّك محمّد نبي الرحمة، يا محمّد إنّي أتوجه بك إلى ربّي في حاجتي لتُقضى، اللّهمّ شفّعه فيَّ. قال ابن حنيف: فوالله ما تفرّقنا وطال بنا الحديث حتّى دخل علينا كأن لم يكن به ضرّ قطّ**»[٢] .

أيّها التائب

إنّك لست أعزّ من أنبياء الله عليهم السلام الذين استشفعوا إلى الله تعالى بنبيّه الأكرم ﷺ، فهذا نبيّنا آدم أبو البشر قال في دعائه: «**ربّي أسألك بحقّ محمّد لما غفرتَ لي، فقال الله عزّ وجلّ: يا آدم، كيف عرفت محمّداً ولم أخلقه؟ قال: لأنّك يا ربّ لمّا خلقتني بيدك ونفخت فيّ من روحك رفعت رأسي فرأيت على قوائم العرش مكتوباً: لا إله إلّا الله محمّد رسول الله، فعلمت أنّك لم تُضِفْ إلى اسمك إلّا أحبّ الخلق إليك....**»[٣]

---

(١) سورة يوسف: الآية: ٩٧.

(٢) الترمذي، الصحيح كتاب الدعوات، الباب ١١٩، برقم ٣٥٧٨.

(٣) دلائل النبّوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، ج٥ ص ٤٨٩ ط دار الكتب العلمية بيروت.

شفعاء آخرون

١- **شفاعة العمل:** فتوسّل إلى الله تعالى بهم ليقبل بدعائهم تقرّبك منه، ولكن تنّبه إلى أمر مهمّ جدّاً، وهو أن أهمّ شفيع لديك هو عملك، هل تعرف كيف ذلك؟

إنّك ستتوب وسيقبل الله توبتك لأنّه وعد بقبولها، ولكن لا تقع في الذنب مرّة أخرى، لأنّ حياتك ليست في يديك، وقد يدركك الموت وأنت من أهل الذنوب، وحينها ستحتاج إلى الشفاعة، فماذا لو لم تكن من أهل الشفاعة؟

لماذا لا تكون كالّذين قال فيهم الإمام الصادق عليه السلام: «**إذا كان يوم القيامة نشفع في المذنبين من شيعتنا، فأمّا المحسنون فقد نجّاهم الله**»[١]، يعني الذين هم في غنى عن الوصول لانتظار الشفاعة. إنّ عملك الحسن هو أشفع شيء لديك.

زيادة على ذلك أنت أيّها التائب يمكن أن تكون شافعاً يوم القيامة لكثير من المذنبين، نعم بإمكانك ذلك إن كنت من:

٢- **المؤمنين الصدّيقين:** فإنّ لهم شفاعة عند الله تعالى لسائر المؤمنين، ففي الرواية عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**الشهيد يغفر له في أوّل كلّ دفقة من دمه، ويزوّج حوراوين ويشفّع في سبعين من أهل بيته**»[٢].

وعنه عليه السلام عن أبي عبد الله عليه السلام في قول الله تعالى: ﴿**فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ**﴾[٣] قال: «**الشافعون الأئمّة، والصديق من المؤمنين**»[٤].

٢ - **الشهداء:** فإنّهم من أهل الشفاعة الّذين أذن الله تعالى بشفاعتهم في سائر المؤمنين، فعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**الشهيد يغفر له في أوّل كلّ دفقةٍ من دمه، ويزوّج حوراوين ويشفّع في سبعين من أهل بيته**»[٥].

---

(١) ميزان الحكمة، محمّدي الريشهري، ج ٢، ص ١٤٧٤.

(٢) شفاعة الملائكة والأنبياء عليهم السلام والعلماء والشهداء مركز المصطفى صلى الله عليه وآله ص ١٩.

(٣) سورة الشعراء: الآيتان: ١٠٠-١٠١.

(٤) المجلسي، محمّد باقر، بحار الأنوار، مؤسّسة الوفاء، الطبعة الثانية المصححة، ج ٨ ص ٤٢.

(٥) شفاعة الملائكة والأنبياء عليهم السلام والعلماء والشهداء مركز المصطفى صلى الله عليه وآله ص ١٩.



المفاهيم الأساس:

١. الشفاعة توسيط شخص في طلب أمر من طرف ثانٍ، وفي الدعاء توسيط النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم والأئمّة عليهم السلام في الدعاء لنا لقبول التوبة.

٢. يشفع النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم وأهل بيته يوم القيامة لبعض الناس بإذن الله تعالى لهم.

٣. الأفضل للإنسان أن يسعى ليكون من الشافعين لا المشفوع لهم يوم القيامة.



للمطالعة:

أقســام التائبين: التائبون بين من سكنت نفسه عن الشروع إلى الذنوب فلا يحوم حولها، وبيــن من بقي في نفسه الشروع إليها والرغبة فيها وهو يجاهدها ويمنعها. والأوّل بين من سكونه النـزوع وبطلانه فيه لأجل قـوّة اليقين وصدق المجاهدة، ومن سكونـه وانقطاعه بفتور في نفس الشهـوة فقط. والأوّل مــن الأوّل أفضل من الثاني، والثاني منه أدون مــن الثاني، والوجه ظاهر. وأيضــا التائبـون بين من نسي الذنب من دون اشتغال بالتفكّر فيــه، وبين من جعله نصب عينيه ولا يـزال يتفكّر فيه ويحترق ندماً عليه. ولا ريب فــي أن التذكّر والاحتراق بالنظر إلى المبتدي ومــن يخاف عليه العود أفضل، لأنّه يصدّه عنه، والنسيان بالنظر إلى المنتهي السالك والواصل إلــى مرتبة الحبّ والأنس الواثق من نفسه أنّه لا يعود أفضل، لأنّه شغل مانع عن سلوك الطريق، وحاجــب من الحضور بلا فائدة ولا ينافيه بكاء الأنبيــاء عليهم السلام وتناجيهم من الذنوب، لأنّهم قد ينزلــون في أقوالهم وأفعالهم إلــى الدرجات اللّائقة بالأمّة، فإنّهم بُعثوا لإرشادهم فعليهم التلبّس بمــا تنتفع الأمّة بمشاهدته، وأن كان نازلاً عــن ذروة مقامهم. ولذا قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**أما إنّي لا أنسى، ولكن أنسى لأشرع**». ولا تعجب من هذا، فإنّ الأمم في كنف شفقة الأنبياء عليهم السلام كالصبيــان في كنف شفقة الآباء، وكالمواشي في كنف الرعاة. والأب إذا أراد أن يستنطق ولده الصغيــر ينـزل إلى درجة نطـق الصبيّ، والراعي لشــاة أو طائر يصوّت به رغــاء أو صفيراً شبيهاً بالبهيمة والطائر تلطفاً في تعليمه.

مراتــب التوبــة: اعلم أنّ التائب إمّــا يتوب عن المعاصي كلّها ويستقيــم على التوبة إلى آخــر عمــره، فيتدارك ما فرّط، ولا يعود إلى ذنوبه، ولا يصدر عنه معصية إلّا الزلّات الّتي لا يخلو عنهــا غير المعصومين، وهذه التوبة النصوح، والنفس الّتــي صاحبها هي النفس المطمئنّة الّتي ترجـع إلى ربّها راضية مرضيّــة، أو يتوب عن كبائر المعاصي والفواحشــ ويستقيم على أمّهات الطاعات، إلّا أنّه ليس ينفكّ عن ذنوب تصدر عنه في مجاري أحواله غفلة وسهوة وهفوة، لا عن

محض العمد وتجريد القصد، وإذا أقدم على ذنب لام نفسه وندم وتأسّف، وجدّد عزمه على ألّا يعود إلى مثله، ويتشمّر للاحتراز عن أسبابه الّتي تؤدّي إليه. والنفس الّتي هذه مرتبتها هي النفس اللّوامة الّتي خيرها يغلب على شرّها، فولها حسن الوعد من الله تعالى بقوله: ﴿ **الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ** ﴾ وإلى مثلها الإشارة بقوله ﷺ: «**خياركم كلّ مفتن توّاب**».

جامع السعادات، العلامة النراقي، ج ٣ ص، ٦٤و٦٥

11

قبول التوبة

وكان من دعائه عليه السلام:

اللَّهُمَّ إنْ يَكُنِ النَّدَمُ تَوبَةً إلَيكَ فَأَنَا أَنْدَمُ النَّادِمِينَ، وَإنْ يَكُنِ التَّرْكُ لِمَعْصِيَتِكَ إنَابَةً فَأَنَا أَوَّلُ الْمُنِيبِينَ، وَإنْ يَكُنِ الاسْتِغْفَارُ حِطَّةً لِلذُّنُوبِ فَإنِّي لَكَ مِنَ الْمُسْتَغْفِرِينَ. اللهُمَّ فَكَمَا أَمَرْتَ بِالتَّوْبَةِ وَضَمِنْتَ الْقَبُولَ وَحَثَثْتَ عَلَى الدُّعَاءِ وَوَعَدْتَ الإجَابَةَ، فَصَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَاقْبَلْ تَوبَتِي وَلاَ تَرجِعْنِي مَرجِعَ الغَيبَةِ مِنْ رَحْمَتِكَ إنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ عَلَى الْمُذْنِبِينَ، وَالرَّحِيمُ لِلْخَاطِئِينَ الْمُنِيبِينَ.

تمهيد:

وعـد اللّه تعالى بقبول التوبة من التائب إليه والعائد من دار الذنوب إلى دار الطاعة والرضى، ولكنّ سؤالاً قد يطرأ على الذهن: ما معنى أنّ اللّه تعالى يقبل التوبة؟

فهل تمحى كلّ الآثار، أو يبقى شيء منها؟ وهل قبول اللّه تعالى للتوبة يعني أنّه رضي عمّن تاب إليه، أو مجرّد قبول لأنّه وعد بقبولها بدون الرضى الحقيقيّ؟

هـذه الأسـئلة سـنجيب عنها في هـذا الدرس، سـائلين اللّه تعالـى أن يجعلنا من المقبولين عنده والمحظوظين بألطافه.

الوعد القرآنيّ

يقـول اللّه تعالى في محكـم قرآنه: ﴿**أَلَمْ يَعْلَمُواْ أَنَّ اللهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ**﴾ [1].

وفـي آية أخرى: ﴿**غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ**﴾ [2].

وفـي آيـة ثالثة: ﴿**وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللهَ يَجِدِ اللهَ غَفُورًا رَّحِيمًا**﴾ [3].

فاللّه تعالى يقبل التوبة، وحينما يقبلها برحمته فلا بدّ أنّ العفو هو عفوٌ نهائيّ يمحو ما سبقه من آثار المعصية، بشرط تحقيق الشروط الّتي مرّت معنا سابقاً.

---

(١) سورة التوبة: الآية ١٠٤.

(٢) سورة غافر: الآية ٣.

(٣) سورة النساء: الآية ١١٠.

وفــي الرواية عن الرســول الأكــرم صلى الله عليه وآله وسلم: **«إنَّ الله تعالى يبسـط يده بالتوبة لمسـيء اللّيـل إلـى النهار ولمسـيء النهار إلى اللّيل حتّى تطلع الشـمس من مغربها، وبسـط اليد كناية عن طلب التوبة، وطالب التوبة يقبله البتّة»** [١].

بل حتّى مع تكرّر المعصـية من الإنسـان المؤمن، فكلما يتوب ويحقّق شـرط التوبة فإنّ اللّه سيقبل توبته بما كتب على نفسه من الرحمة بالمؤمنين، وفي الرواية أنّ الإمام الباقر عليه السلام قال لمحمّد بن مسـلم: **«ذنوب المؤمن إذا تاب منها مغفورة له، فليعمل المؤمـن لما يسـتأنف بعـد التوبة والمغفرة، أمـا والله إنّها ليسـت إلّا لأهل الإيمان»**، فقال له: فإنّ عاد بعد التوبة والاسـتغفار من الذنـوب، وعاد في التوبة؟ قال عليه السلام: **«يا محمّـد بن مسـلم، أتـرى العبد المؤمـن يندم على ذنبه ويسـتغفر منـه ويتوب ثمّ لا يقبـل الله توبتـه!؟»**، قال: فإنّه فعل ذلك مراراً، يذنب ثمّ يتوب ويسـتغفر، فقال: **«كلّما عـاد المؤمن بالاسـتغفار والتوبة عـاد الله عليه بالمغفـرة، وإنّ الله غفور رحيم يقبل التوبة ويعفو عن السيّئات، فإيّاك أن تقنط المؤمن من رحمة الله»** [٢].

لماذا يقبل الله التوبة؟

ذكر علماء الأخلاق رضـوان اللّه عليهم تفسيرات عديدة وتعليلات لقبول اللّه تعالى للتوبـة، مع تسـليمهم بأنّ الأمر لا يحتاج إلــى كثير من البيان لوضـوحه، يقول العلّامة النراقيّ قدّس سـرّه في جامع السـعادات: **«ثمّ الناظر بنور البصيرة لا يحتاج في هذا المعنى إلى بيان، إذ يعلم أنّ التوبة توجب سلامة القلب، وكلّ قلبٍ سليم مقبولٌ عند الله ومتنعّم في الآخرة في جوار الله، ويعلم أنّ القلب خُلق في الأصـل سـليماً صافياً، إذ كلُّ مولود يولد على الفطرة، وإنَّما مرِضَ واسودَّ بِأمراض الذنوب وظلماتها ودواء التوبـة يزيـل هـذه الأمراض، ونور الحسـنات يمحو هذه الظلمـات، ولا طاقة لظلام المعاصي مع نور الحسنات، كما لا طاقة لظلام اللّيل مع نور النهار، ولكدورة الوسخ**

---

(١) محمّد مهدي النراقي، جامع السعادات، ج ٣ ص ٥٢.

(٢) م.ن. ج ٣ ص ٥٣.

مـع بيان الصـابون والماء الحارّ. نعـم إذا تراكمت الذنوب بحيث صـارت ريناً وطبعاً، وأفسدت القلب بحيث لا يقبل الصفاء والنورانيّة بعد ذلك، مثل هذا القلب لا تفيده التوبة، بمعنى أنّه لا يرجع ولا يتوب، وإن قال باللسان تبت، إذ أوساخ الذنوب غاصت فـي تجاويفـه وتراكمت فيه بحيث لا يقبـل التطهير، ولو بولـغ فيـه أدّى إلى انخراق القلب وهلاكه، لصيرورة الأوساخ جزءاً من جوهره، كما أنّ الثوب الّذي غاص الوسخ في تجاويفه وخلله وتراكم فيه، لو بولغ في تطهيره بالماء والصابون أدّى ذلك إلى انخراقـه. وهـذا حال أكثر الخلق المقبلين على الدنيا المعرضـين عن الله، فإنّهم لا يرجعون ولا يتوبون، لصـيرورة ذمائم الأخلاق ورذائلها ملكات راسـخة في نفوسـهم وغاصت أوساخها في تجاويف قلوبهم، بحيث لا يتنبّهون ولا يتيقّظون حتّى يقصدوا التوبـة، ولو قصـدوها فإنّمـا هو بمجرّد اللسـان، والقلب غافلٌ خالٍ عـن الإيمان، بل تتعذّر عليه التوبة لبطلان حقيقتها»[1].

من لا تقبل توبتهم

ليس غريباً أنّ بعض الناس يصل لمقام لا تقبل منهم التوبة، وسنذكر بعض النماذج من هؤلاء مع محاولة فهم السبب الّذي أودى بهم لهذه الحالة.

المرتدّون:

الذين قال اللّه تعالى فيهم: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُواْ كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الضَّآلُّونَ**﴾[2]. ولعلّ ذلـك لأنّه لا يوجـد تفريط بنعمة كنعمـة الهداية إلى الإيمان، فكون المرء مولوداً في مجتمع كافر ولم يسـعَ بكلّ جهده ليرى الحقيقة أسـهل بكثير ممّن هداه اللّه تعالى، ومن ثمّ انتقل إلى الكفر. وهذا لعلّه من أشدِّ أنواع الجحود والكفران.

---

(١) محمّد مهدي النراقي، جامع السعادات، ج ٣ ص٥٤، ٥٥.

(٢) سورة آل عمران: الآية ٩٠.

المنكرون للحقّ:

وهم في غالب الأحيان من الذين يصاحبون السلاطين فيكتمون الحقّ خوفاً على مصالحهم، ويرضون بأفعال السلاطين مع علمهم بقبيح فعالهم، هؤلاء الذين يعرفون الحقّ فيكتمونه قال فيهم اللّه تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلاَّ النَّارَ وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ اللّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلاَ يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُاْ الضَّلاَلَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ**﴾(١).

وهذا الصنف من الناس كما تقول الآية هو الّذي اشترى العذاب بنفسه وأبعد نفسه عن نيل المغفرة بجرمه، مع علمه بأنّ عاقبة الأمر النار.

وبالإجمال، كلّ من يصرّ على المعاصي ويهجر التوبة عامداً متجرّئاً على اللّه تعالى فلن يغفر اللّه تعالى له؛ لأنّه اختار بنفسه أن لا يكون من أهل المغفرة.

---

(١) سورة البقرة: الآيتان ١٧٤، ١٧٥.



المفاهيم الأساس:

١. إنّ قبول التوبة ومحو آثار المعاصي وعد قرآنيّ.
٢. ذكر علماء الأخلاق عللاً كثيرة لسبب قبول التوبة أو عدمه.
٣. بعض الناس يختارون بسوء تصرّفهم الحرمان من المغفرة.



للمطالعة:

اعلم أنّ من تاب ولا يثق من نفسه الاستقامة على التوبة فلا ينبغي أن يمنعه ذلك عن التوبة علمــاً منه أنه لا فائدة فيه، فإنّ ذلك من غــرور الشيطان، ومن أين له هذا العلم، فلعله يموت تائباً قبل أن يعود إلى الذنب.

وأمّــا الخوف من العود، فليتداركه بتجريد القصــد وصدق العزم، فإنّ وفى به فقد نال مطلبه، وإلّا فقــد غُفرت ذنوبه السابقة كلّها وتخلّص منها، وليس عليه إلّا هذا الذنب الّذي أحدثه الآن. وهذا من الفوائد العظيمة والأرباح الجسيمة، فلا يمنعك خوف العود من التوبة فإنّك من التوبة أبداً بين إحدى الحسنيين:

أحداهما العظمى: وهي غفران الذنوب السابقة وعدم العود إلى ذنبه في الاستقبال.

وثانيتهمـا وهي الصـغرى: غفران الذنوب الماضيــة، وإن لم يمنع العود إلى الذنب في المستقبل.

ثــمّ إذا عاد إلــى الذنب ينبغي أن يتــوب عنه دفعة، ويتبعــه بحسنة لتمحوهــا، فيكون ممّن خلــط عملاً صالحــاً وآخر سيئاً. والحسنــات المكفّرة للذنوب إمّا متعلقــة بالقلب: وهي الندم، والتضــرّع إلى الله، والتذلّل له، وإضمــار الخير للمسلمين، والعزم علــى الطاعات، أو باللسان: وهي الاعتراف بالظلم والإساءة، وكثرة الاستغفار، أو بالجوارح: وهي أنواع الطاعات والصدقات. وينبغي ملاحظة المناسبة بين السيّئة الّتي صدرت عنه والحسنة الّتي يتبعها لتمحوها.

وفــي الخبـر: أنّ الذنب إذا أتبع بثمانية أعمال كان العفو مرجوّاً: أربعة من أعمال القلوب، وهــي: التوبــة أو العزم على التوبــة، وحبّ الاقلاع عن الذنــب، وتخوّف العقــاب عليه، ورجاء المغفرة، وأربعة من أعمال الجوارح، وهي: أن تصلّي عقب الذنب ركعتين، ثمّ تستغفر الله تعالى

بعدهمــا سبعين مرّة وتقول سبحان الله العظيم وبحمده مائة مــرّة، ثمّ تتصدّق بصدقة، ثمّ تصوم يومــاً. وفي بعض الأخبار: تسبغ الوضوء وتدخل المسجد وتصلّي ركعتين، وفي بعضها: تصلّي أربــع ركعــات. ولا تظنّ أنّ الاستغفــار باللسان بدون حلّ عقدة الإصــرار لا فائدة فيه أصلاً، بل هــو توبة الكذّابين، لمــا ورد من أنّ المستغفر من الذنب وهو مصرّ عليــه كالمستهزئ بآيات الله لأنّ الاستغفــار الّذي هو توبة الكذّابيــن ولا فائدة فيه أصلاً هو الاستغفار بمجرّد اللسان وبحكم العــادة وعلــى سبيل الغفلة، أي مــا يكون مجرّد حركة اللسان مــن دون مدخليّة للقلب، كما إذا سمــع شيئاً مخوفاً، فيقول على الغفلــة: أستغفر الله، أو نعوذ بالله، من غير شركة للقلب فيه وتأثّره منه، وأما إذا انضاف إليه تضرّع القلب وابتهاله في سؤال المغفرة عن صدق إرادة وخلوص رغبة وميــل قلبــي إلى انقلاعه عن هذا الذنب فهي حسنة في نفسها، وإنّ علم أنّ نفسه الأمّارة ستعود إلــى هذا الذنب فتصلح هذه الحسنة لأن يدفع بها السيّئة، فالاستغفار بالقلب وإن خلا عن حلّ عقدة الإصرار لا يخلو عن الفائدة، وليس وجوده كعدمه. وقد عرف أرباب القلوب بنور البصيرة معرفــة قطعية يقينيــة لا يعتريها ريب وشبهة صدق قوله تعالى: ﴿**فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَــن يَعْمَلْ مِثْقَــالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ**﴾[١]. ولذا جزموا وقطعوا بأنّــه لا تخلو ذرّة من الخير عن أثر كمــا لا تخلو شعيرة تطرح في الميزان عن أثر، ولو كانت كلّ شعيرة خالية عن أثر لكان لا يرجح الميزان باجتماع الشعيرات، فميزان الحسنات يترجّح بذرّات الخيرات إلى أن يثقل فتسلّ كفّة السيئــات، فإيّاك وأن تستصغر ذرّات الطاعات فــلا تأتيها، وتستحقر ذرّات المعاصي فلا تتّقيها، كالمــرأة الخرفــاء تكسل عن الغزل تعلّلاً بأنّها لا تقدر في كلّ ساعــة إلّا على خيط واحد، وأيّ غنــى يحصل منــه، وما وقع ذلك في الثياب، ولا تدري أنّ ثيــاب الدنيا اجتمعت خيطاً خيطاً، وأنّ أجسام العالم مع اتّساع أقطاره اجتمعت ذرّة ذرّة، وربّما ترتّب على عمل قليل ثواب جزيل، فلا ينبغي تحقير شــيء من الطاعات. قال الإمام الصادق عليه السلام: «**إنّ الله تعالى خبّأ ثلاثاً في ثــلاث: رضاه في طاعته، فلا تحقّروا منها شيئاً فلعل رضاه فيه. وغضبه في معاصيه، فلا**

(١) سورة الزلزلة: الآيتان ٧، ٨.

تحقّـروا شيئاً فلعل غضبه فيه. وخبّأ ولايته في عبادته، فلا تحقّروا منهم أحداً فلعله وليّ الله». فإذاً الاستغفار بالقلب حسنة لا تضيع أصلاً، بل ربّما قيل: الاستغفار بمجرّد اللسان أيضاً حسنة، إذ حركة اللسان بها غفلة خير من السكوت عنه فيظهر فضله بالنظر إلى السكوت عنه، وإن كان نقصاً بالإضافة إلى عمل القلب، فينبغي ألّا تترك حركة اللسان بالاستغفار، ويجتهد في إضافة حركة القلب إليها، ويتضرّع إلى الله أن يشرك القلب مع اللسان في اعتياد الخير.

(محمّد مهدي النراقي، جامع السعادات، ج ٣ ص ٦٨ – ٦٩)

12

البصيرة

وكان من دعائه عليه السلام:

اللَّهُمَّ وَثَبِّتْ فِي طَاعَتِكَ نِيَّتِي، وَأَحْكِمْ فِي عِبَادَتِكَ بَصِيرَتِي، وَوَفِّقْنِي مِنَ الْأَعْمَالِ لِمَا تَغْسِلُ بِهِ دَنَسَ الْخَطَايَا عَنِّي، وَتَوَفَّنِي عَلَى مِلَّتِكَ وَمِلَّةِ نَبِيِّكَ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ السَّلامُ إِذَا تَوَفَّيْتَنِي.

تمهيد:

أشار الإمام عليه السلام في هذه الكلمات إلى مسألة البصيرة في العبادة، والتعبير المباشر عن هذا الأمر بقوله: «**وَأَحْكِمْ فِي عِبَادَتِكَ بَصِيرَتِي**» فما هو المراد من البصيرة؟ وما هو أثرها في العبادة؟

ما هي البصيرة؟

حدّثنا أمير المؤمنين عليه السلام عن البصير من الناس فقال: «**فإنّما البصير من سمع فتفكّر، ونظر فأبصر، وانتفع بالعبر، ثمّ سلك جدداً واضحاً يتجنّب فيه الصرعة في المهاوي**» [1].

فالبصيرة هي نوع من الرؤية الواضحة للأمور الحسنة من القبيحة، ونظرة عميقة فيما وراء الأعمال بعد التفكّر في عواقبها ونتائجها، ويسمّى صاحبها بالبصير أو ذي البصيرة.

(١) الريشهري، محمّد، ميزان الحكمة، دار الحديث، الطبعة الأولى، ج ١ ص ٢٦٦.

كيف تُحصّل البصيرة؟

ذكـرت الروايات العديد من الأسـباب الّتي ينتج منها قوّة البصـيرة عند الإنسـان، ومن أهمّ هذه الأسباب:

التفقّه في الدين

أي دراسة أحكام الله تعالى الشرعيّة ومعرفة العقائد الحقّة والاستدلال عليها بالأدلّة الّتـي تورث اليقيـن، ونحو هذا من الأمور الّتي تقرّب المرء مـن الله تعالى وتعرّفه بحقّ نبيّه وأهل بيته عليهم السلام، فقد جاء في الرواية عن الإمام موسـى بن جعفر الكاظم عليه السلام: «**تفقّهوا في دين الله، فإنّ الفقه مفتاح البصيرة، وتمام العبادة، والسبب إلى المنازل الرفيعـة، والرتـب الجليلـة فـي الديـن والدنيـا، وفضـل الفقيـه على العابد كفضـل الشمس على الكواكب، ومن لم يتفقّه في دينه لم يرضَ الله له عملاً**»[1].

فالتعلّم الّذي يوصل لرضى الله تعالى ليس بالأمر الّذي يستهان فيه، ويكفي في فضله قول الله تعالى: ﴿**هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ**﴾[2].

وفـي الرواية عن الرسـول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم: «**ركعتـان يصـلّيهما العالم أفضـل من ألف ركعة يصلّيها العابد**»[3].

والمراد بالعلم هنا العلم الموصل للآخرة الدّال على الله تعالى ومرضاته لا أيّ علم، ففي الرواية عن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم: «**من أوتي من العلم ما لا يبكيه، لحقيق أن يكون قـد أوتـي علمـاً لا ينفعه، لأنّ الله نعت العلماء فقال عزّ وجـلّ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُواْ الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا * وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً * وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾[4]**»[5].

فهذا العلم هو المورث للبصيرة الّتي لا بدّ من وجودها في العبادة.

(١) المجلسي، محمّد باقر، بحار الأنوار، مؤسّسة الوفاء، الطبعة الثانية المصححة، ج ١٠ ص ٢٤٧.

(٢) سورة الزمر، الآية: ٩.

(٣) العلّامة المجلسي، بحار الانوار، ج٧٤ج ص٥٧.

(٤) سورة الإسراء، الآيات: ١٠٧، ١٠٩.

(٥) الريشهري، محمّد، ميزان الحكمة، دار الحديث، الطبعة الأولى، الحديث ١٣٩٦٢.

البصيرة والعبادة

ما علاقة البصيرة بالعبادة؟

سؤال وجيه، فلم يَطلب الإمام البصيرة في العبادة؟ والجواب عن ذلك أنّ العبادة مع البصيرة تختلف بشكل كبير عن عبادة بلا بصيرة، فالعبادة مع التفكّر والتدبّر بمضامينها لا شكّ بأنّها أعظم أجراً وأكمل من سائر العبادات، فالصلاة بكلّ أشكالها بعد تحصيل شروطها صلاة مسقطة للواجب، ولكن هل كلّ صلاة مقبولة عند الله تعالى؟ لماذا مدح الله تعالى الخاشعين في صلاتهم بقوله: ﴿**قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ**﴾[1]؟ وفي الرواية عن رسول الله الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم: «**إنّ الرجلين من أمّتي يقومان في الصلاة، وركوعهما وسجودهما واحد، وإنّ ما بين صلاتيهما مثل ما بين السماء والأرض**»[2] .

البصيرة تقود لخاتمة الخير

تأمّل يا أخي في ما حولك من أشخاص تبوّؤا مناصب كبيرة في الأمّة، وكانوا في أيّامهم الأولى من المخلصين الذين لا تشكّ ذرةً في إيمانهم، ولكن أين أصبحوا الآن؟ في خدمة الطاغوت، فكيف نفسرّ ذلك؟ هل يعقل لمن ملأ جزءاً من عمره بالتضحية والجهاد أن تنتهي حياته بعبادة الطاغوت والتزلّف إليه؟

نستكشف من هذه النماذج أنّ هؤلاء لم يكونوا من أهل البصيرة، ولو كانوا لما وصل بهم الأمر إلى هذه الحال، فختم لهم بهذه الخاتمة السيّئة.

لذلك كانت هذه الفقرة الأخيرة في دعاء الإمام عليه السلام: «**وَتَوَفَّنِي عَلَى مِلَّتِكَ وَمِلَّةِ نَبِيِّكَ مُحَمَّد عَلَيْهِ السَّلامُ إذَا تَوَفَّيْتَنِي**».

---

(1) سورة المؤمنون، الآية: ١، ٢.

(2) الريشهري، محمّد، ميزان الحكمة، دار الحديث، الطبعة الأولى، ج ٢ ص ١٦٣٢.

عن الرسـول الأكـرم ﷺ: «**وإنّمـا الأعمال بخواتيمهـا**» (١)، فما أتعس الإنسـان أن يصـل في نهاية عمره إلى الحقيقة المرعبة المروّعة، والّتي لا تنفع بعدها الندامة وهي أنّه من الّذين قال الله تعالى فيهم: ﴿**قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا * الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا**﴾ (٢).

أنا وأنت لا نعلم كيف سـتكون عاقبتنا، ولكن علينا الحذر الشـديد من ذلك، والعمل في الدنيا بما يوافق الإخلاص، مبتعدين عن أهواء النفس وميولها الّتي هي أوّل الأسباب المؤديّة لسـوء العاقبة، ولتكن القاعدة لدينا والمحرّك لنا للعمل قول رسول الله ﷺ: لا يزال المؤمن خائفاً من سـوء العاقبة، لا يتيقّن الوصول إلى رضوان الله حتّى يكون وقت نزع روحه وظهور ملك الموت له (٣).

فعلينـا فيمـا تبقّى لنا من أيّام حياتنا الّتي لا نعلم تحديداً كم بقي لنا منها، أن نكون في حالة توبة دائمة، لتحسـن عاقبتنا، ولنتذكّر ما روي عن إمامنا الصادق عليه السلام، عن آبائه صلوات الله عليهم قال: «**قال رسول الله ﷺ: من أحسن فيما بقي من عمره لم يؤاخذ بما مضى من ذنبه، ومن أساء فيما بقي من عمره أُخذ بالأوّل والآخر**» (٤).

---

(١) المجلسي، محمّد باقر، بحار الأنوار، مؤسّسة الوفاء، الطبعة الثانية المصحّحة، ج ٩ ص ٣٣٠.

(٢) سورة الكهف: الآيتان ١٠٣، ١٠٤.

(٣) النمازي، عليّ، مستدرك سفينة البحار، مؤسّسة النشر الإسلامي، ج ٧ ص ٢٩٦.

(٤) م.ن. ج ٧ ص ٢٩٥.



المفاهيم الأساس:

١. البصيرة نوع من الرؤية الواضحة للأمور الحسنة من القبيحة، ونظرة عميقة فيما وراء الأعمال بعد التفكّر في عواقبها ونتائجها.

٢. البصيرة في العبادة ترفع من قيمة العمل وتجعله مقبولاً لدى الله تعالى.

٣. نظرة إلى من انتهى بهم الأمر إلى سوء العاقبة وسبب ذلك.



للمطالعة:

حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا

اعلم أنّ الكتاب والسنّة وإجماع الأمّة دالّة على ثبوت المحاسبة يوم القيامة، وحصول التدقيق والمناقشة في الحساب، والمطالبة بمثاقيل الذرّ من الأعمال والخطرات واللّحظات، قال الله سبحانه: ﴿**وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ**﴾[1] وقال: ﴿**يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللهُ وَنَسُوهُ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ**﴾[2] وقال: ﴿**وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا**﴾[3] وقال: ﴿**يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ * فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ**﴾[4] وقال: ﴿**يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوَءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا**﴾[5] وقال: ﴿**ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ**﴾[6] وقال: ﴿**فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِيْنَ * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾[7].

وقال رسول الله ﷺ: «**ما منكم من أحد إلّا ويسأله ربّ العالمين، ليس بينه وبينه حجاب ولا ترجمان**». وورد بطرق متعددة: أنّ كلّ أحد في يوم القيامة لا يرفع قدماً عن قدم حتّى يُسأل عـن عمره فيمـا أفناه، وعن جسده فيما أبـلاه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيمـا أنفقه. والآيات

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٤٧.

(٢) سورة المجادلة، الآية: ٦.

(٣) سورة الكهف، الآية: ٤٩.

(٤) سورة الزلزلة، الآيات: ٦، ٨.

(٥) سورة آل عمران، الآية: ٣٠.

(٦) سورة آل عمران، الآية: ١٦١.

(٧) سورة الحجر، الآيتان: ٩٢، ٩٣.

والأخبار الواردة في محاسبة الأعمال والسؤال عن القليل والكثير والنقير والقطمير أكثر من أن تحصى، وبإزائها أخبار دالّة عن الأمر بالمحاسبة والمراقبة في الدنيا والترغيب عليها، وعلى كونها سبباً للنجاة والخلاص عن حساب الآخرة وخطره ومناقشته. فمن حاسب نفسه قبل أن يحاسب، وطالبها في الأنفاس والحركات، وحاسبها في الخطرات واللحظات، ووزن بميزان الشرع أعماله وأقواله: خفّ في القيامة حسابه وحضر عند السؤال جوابه، وحسن منقلبه ومآبه. ومن لم يحاسب نفسه: دامت حسراته، وطالت في عرصات القيامة وقفاته، وقادته إلى الخزي سيّئاته، قال الله سبحانه: ﴿ **وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ** ﴾ . والمراد بهذا النظر: المحاسبة على الأعمال، وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوها قبل أن توزنوا**». قال الإمام الصادق عليه السلام: «**إذا أراد أحدكم ألّا يسأل ربّه شيئاً إلّا أعطاه فلييأس من الناس كلهم، ولا يكون له رجاء إلّا من عند الله – تعالى – فإذا علم الله – تعالى – ذلك من قلبه لم يسأله شيئاً إلّا أعطاه فحاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا عليها فإنّ للقيامة خمسين موقفاً. وكلّ موقف ألف سنة**» ثمّ تلا: ﴿ **فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ** ﴾. وتفريع المحاسبة على الأمر باليأس من الناس والرجاء من الله، يدّل على أنّ الإنسان إنّما يرجو الناس من دون الله في عامّة أمره وهو غافل عن ذلك، وإنّ عامّة المحاسبات إنّما ترجع إلى ذلك. وذكر الوقوف في مواقف يوم القيامة على الأمر بمحاسبة النفس يدلّ على أنّ الوقفات هناك إنّما تكون للمحاسبات، فمن حاسب نفسه في الدنيا يوماً فيوماً لم يحتج إلى تلك الوقفات في ذلك اليوم، وقال عليه السلام: «**لو لم يكن للحساب مهول إلّا حياء العرض على الله – تعالى – وفضيحة هتك الستر على المخفيّات، لحقّ للمرء ألّا يهبط من رؤوس الجبال، ولا يأوي إلى عمران، ولا يأكل، ولا يشرب، ولا ينام إلّا عن اضطرار متصل بالتلف. ومثل ذلك يفعل من يرى القيامة بأهوالها شدائدها قائمة في كلّ نفس، ويعاين بالقلب الوقوف بين يدي الجبّار، حينئذ يأخذ نفسه بالمحاسبة، كأنّه إلى عرصاتها مدعوّ وفي غمراتها مسؤول**»، قال الله – تعالى –: ﴿ **وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ** ﴾[1] . .

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٤٧.

وقال الإمام الكاظم عليه السلام : «**ليس منّا من لم يحاسب نفسه في كلّ يوم، فإنّ عمل حسنة استزاد الله - تعالى - وإن عمل سيّئة استغفر الله منها وتاب إليه**». وفي بعض الأخبار: ينبغي أن يكون للعاقل أربع ساعات: ساعة يحاسب فيها نفسه....

(محمّد مهدي النراقي،جامع السعادات، ج ٣ ، ص ٧١ - ٧٣)



الفهرس